الفصل الثالث

صراع القوى البحرية الاسلامية ضد بيزنطة

(٨٦٧ — ٩٤٦ م)

— اهمية عصر الاسرة المقدونية .

— تنظيم الاسطول الاسلامى ، السفن والأسلحة المستخدمة فى الحرب البحرية عند المسلمين .

— نظام البحرية البيزنطية ، رتب العاملين بالاسطول واعطياتهم ، انواع السفن والاسلحة بالاسطول البيزنطى .

— الصراع بين كريت وبيزنطة فى عهد الامبراطور باسيل الاول (٨٦٧ — ٨٨٦ م)

— هجوم أساطيل كريت ومصر والشام بقيادة ليون الطرابلسى على مدينة سالونيك عام ٩٠٤ م .

— حملة هيمبريوس على كريت عام ٩١١م وفشلها ، ثم مهاجمة ليون الطرابلسى لها وقضاؤه عليها .

— الحملة البيزنطية عام ٩٤٩م على كريت بقيادة قسطنطين جوجيل وهزيمتها .

استعرضنا فى الفصل السابق بداية الصراع بين جزيرة كريت الاسلامية والدولة البيزنطية فى عهد الاسرة العمورية ، والمحاولات التى قام بها أباطرة هذه الاسرة لاستعادة كريت ، والظروف السياسية التى عرضت لهم سواء فى صقلية أوفى آسيا الصغرى ، وانعكست آثارها على صراعهم مع كريت فى هذه المرحلة . ثم استعرضنا الظروف الداخلية فى بيزنطة ، تلك الظروف التى

لا بست حملة عام ٨٦٦ م على كريت ، وأدت إلى اغتيال القيصر بارداس ، وبذلك اتيحت الفرصة لأن يتوج باسيل المقدونى امبراطورا مشاركاللامبراطور ميخائيل الثالث آخر اباطرة الاسرة العمورية ، ثم المؤامرة التى اطاحت به ، وانفراد باسيل المقدونى بالعرش البيزنطىمؤسسا الاسرة المقدونيةالتى استمرت فى الحكم قرابة القرنين من الزمان (٨٦٧ — ١٠٥٦ م / ٢٥٣ — ٤٤٨ هـ) .

ورغم الطريق الشائك الملىء بالعنف الذى سلكه باسيل للوصول إلى العرش البيزنطى ، إلا أنه فى الواقع امتاز بصفات جعلته من أشهر وأقـدر أباطرة الدولة البيزنطية ، إذ كان جنديا ممتازا ، أولى عناية فائقة للجيـش والاسطول البيزنطى ، وقاد جيوشه الظافرة حتى بلغ بها ضفاف نهر الفرات كما كان اداريا ماهرا ، أعاد تنظيم الادارة المالية بالدولة ، وقبض بيد من حديد على زمام الامور ، وأقام حكومة قوية ذات نظم واضحة . ولتعزيز النظام الادارى والسياسة الداخلية للدولة ، اصدر باسيل المجموعة القانونية الاولى التى ظهرت فى عهد الاسرة المقدونية،وهى التى تعرف باسمProcheiros Nomosأى «القانون الميسر» . وخلاصة القول أن باسيل قد آل على نفسه النهوض بالامبراطورية البيزنطية عن طريق اصلاح شئونها فى الداخل وارجاع هيبتها فى الخارج بعد الهزائم المتلاحقة التى حلت بها فى فترات الضعف والانحلال (١)

وينقسم تاريخ الاسرة المقدونية الى قسمين يختلفان فى طول مدتهما ، كما يتباينان فى الاهمية . والقسم الاول يمتد من سنة ٨٦٧ — ١٠٢٥ م ، وقد

---

(١) عمر كمال توفيق : الامبراطورية البيزنطية ، صص ٧ — ٨ ؛ رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٨٣ . انظر كذلك :

Gibbon, History of the Decline and full of the Roman Empire, pp. 348—349; C.M.H., Vol IV p. 51; Hussey, the Byzantine world p. 34.,

تولى العرش البيزنطى خلاله الاباطرة ، باسيل الاول (٨٦٧ – ٨٨٦م) ، وليو السادس (٨٨٦ – ٩١٢) ، وقسطنطين السابع (٩١٢ – ٩٥٩م) ، ورومانوس الاول ليكابينوس – قسيما للعرش مع قسطنطين السابع – (٩١٩ – ٩٤٤م) ، ورومانوس الثانى (٩٥٩ – ٩٦٣م) ، ونقفور فوقاس ـ وصيا على الامبراطورين الصغرين باسيل الثانى وقسطنطين الثامن –(٩٦٣ ـ٩٦٩م) ويوحنا تزيمسكس – باعتباره هـو الاخر وصيـ على الامبراطورين الشرعيين – (٩٦٩ – ٩٧٦) واخيرا باسيل الثانى (٩٧٦ – ١٠٢٥م) الذى امتد حكمه بمفرده نصف قرن .

وبصفة عامة ، فقد امتاز اباطرة هذه المرحلة بالكفاءة فى الحكم . والخبرة الكبيرة فى الامور الدبلوماسية كما كانوا محاربين مرموقين ، واداريين ممتازين ، دأبوا على العمل من اجل زيادة ثروة البلاد . وهدفوا الى جعل الامبراطور البيزنطية هى الدولة المسيطرة فى الجزء الشرقى من حوض البحر الابيض المتوسط . ونصيرة الحضارة الهللينستيه ،والعقيدة الاثوكسية . ومحط انظار كل الشعوب المتحضرة ، وقد حققوا كثيرا من الانتصارات العسكرية على المسلمين والبلغار والروس ، واسهم فى تحقيق هذه الانتصارات عدد من القادة الاكفاء امثال يوحنا كوركواز ، ونقفور فوقاس ، ويوحنا تزيمكس وبلغت الانتصارات ذروتها فى عصر الامبراطور باسيل الثانى الذى تمتع بصفات جعلته من اشهر الاباطرة البيزنطيين . ويقول المؤرخ الفرنسى

---

(١) عمر كمال توفيق : الامبراطورية البيزنطية ، ص ص ١٠٧ – ١١٠ ، رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ص ٣٧٢ – ٣٧٤ . انظر ايضا :

Diehl, Histoire de l'empire Byzantine, pp. 90—96; Bailly, Byzance pp, 211—212; Hussey, op cit. pp. 33—34, p. 163.

شلومبرجيه Schlumberger ان الامبراطورية البيزنطية لم تبلغ منذ زمن جستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥م) وهرقل (٦١٠ – ٦٤١م) من القوة والسلطان مثلما بلغته فى مستهل عام ١٠١٩م بما احرزه باسيل الثانى من انتصارات باهرة

وبدأت المرحلة الثانية من تاريخ الاسرة المقدونية بعد وفاة باسيل الثانى فى ١٠٢٥ م ، وامتدت حتى عام ١٠٥٦ م . وخلال هذه المرحلة من التاريخ البيزنطى ، افتقرت الامبراطورية الى القيادات الصالحة ، كما كثرت بها الاضطرابات الداخلية والفتن . وقد اعتلى العرش خلال هذه المرحلة : الاباطرة ، قسطنطين الثامن (١٠٢٥ – ١٠٢٨ م) ، ورومانوس الثالث أرجيروس – زوجا للامبراطورة الشرعية زوى المقدونية – (١٠٢٨ – ١٠٣٤ م) ، وميخائيل الرابع البفلاجونى – وهو الزوج الثانى لزوى – (١٠٣٤ – ١٠٤١ م) . وميخائيل الخامس الجلفاط – وهو ابن لها بالتبنى – (١٠٤١ – ١٠٤٢ م) ، ثم زوى وثيودورا (ابريل ١٠٤٢ – يونيو ١٠٤٢م) وبعد ذلك قسطنطين الثامن – وهو الزوج الثالث لزوى – (١٠٤٢ – ١٠٥٥م) واخيرا ثيودورا – اخر افراد الاسرة المقدونية – (١٠٥٥ – ١٠٥٦ م) (٢) .

ويعقب المؤرخ الفرنسى ديل على هذه الفترة قائلا انه كان من سوء حظ الدولة البيزنطية ان وجدت فيها وقتذاك حكومات من النساء او من حكام غير اكفاء، فكان هذا هو نقطة البداية نحو ازمة جديدة فى التاريخ البيزنطى.

على ان اهم ما حققه اباطرة الاسرة المقدونية من انتصارات داخلية ، هو كسبهم لشعور الشعب وولائه بما حققوه له من امجاد ، فأخذت الجماهير

---

(1) Schlumberger L'éopée Byzantine, vol 11, p. 413.

(2) Hussey op. cit., p. 163.

(3) Diehl op. cit., p. 131.

تنظر الى افراد هذه الاسرة نظرة ملؤها الاحترام ، كما آمنت بأنهم أصحاب الحق الشرعى فى حكم البلاد . واذا كان بعض الاباطرة الدخلاء على هذه الاسرة امثال رومانوس ليكابينوس ، ويوحنا تزيمسكس ، ونقفور فوقاس ، قد اغتصبوا السلطة من البيت المقدونى ، الا انهم حكموا فى ظله ولم يقضوا على هذا البيت (١) . اما الفريق الاخر من هؤلاء الاباطرة الدخلاء الذين راودتهم نفوسهم بمحاولة القضاء على السيادة المقدونية ، فقد لقوا من الشعب شر الجزاء (٢) .

لم يكن من المتوقع ان يسود السلام بين كريت والدولة البيزنطية فى هذه المرحلة الجديدة من مراحل العلاقات السياسية بينهما ، نظرا لحرص اباطرة هذا العصر على حفظ الممتلكات البيزنطية . واستعادة نفوذ بيزنطه فى شرقى

---

(١) عمر كمال توفيق : الامبراطورية البيزنطية ، ص ص ١٠٩ — ١١٠ .

(٢) يروى التاريخ البيزنطى العديد من المواقف التى اثبت فيها الشعب تمسكه بأفراد الأسرة المقدونية وولاءه لها . وقد تجلى ذلك بشكل واضح فى عام ١٠٤٢م حين رغب الامبراطور ميخائيل البفلاجونى فى تأسيس أسرة جديدة يقضى بها على الأسرة المقدونية ، فقبض على الامبراطورة الشرعية زوى Zoé ابنة الامبراطور قسطنطين الثامن ، ونفاها إلى احدى الجزر المواجهه للقسطنطينية . ولما علمت الجماهير بنبأ نفى حاكمتهم سليلة البيت المقدونى ثارت ثورة عارمة واجبرت ميخائيل على اعادتها واظهارها للشعب ، الذى لم يكتف بذلك وانما اسرع افراده وانتزعوا شقيقتها ثيودورا Theodora من الدير الذى كانت تعيش فيه والتفوا حولها فى مظاهرة شعبية مهيبة حتى انتهوا إلى كنيسة القديسة صوفيا حيث اعلن السناتو ورجال الدين والشعب — صفوته ورعاعه — خضوعهم التام لها ونادوا بها امبراطوره وذلك فى ٢١ ابريل ١٠٤٢ م . اما ميخائيل البفلاجونى فقد تم تكحيله وابعاده عن العرش . وهناك مواقف اخرى مماثلة حدثت فى عهد الامبراطور قسطنطين مونوماخوس (١٠٤٣ — ١٠٥٤ م) . انظر :

Psellus chronographia Tomus I pp. 100—107; Zonaras Epitomae Historiarum Liber XVIII p. 611. Ramband Etudes sur l'histoire Byzantine p. 236; Diehl Figures Byzantines, p. 280; Foord the Byzantine Empire, p. 308.

البحر الابيض المتوسط . وفى نفس الوقت ، كان المسلمون بكريت حريصين على الاحتفاظ بالجزيرة تحت سيادتهم ومواصلة النضال ضد الدولة البيزنطية . وقد امتازت هذه المرحلة من مراحل الصراع بين الطرفين بظاهرة هامـــة ، هى ان بيزنطة لم تعد تواجه كريت وحدها على النحو الذى حدث فى الفترة السابقة من الحكم الاسلامى للجزيرة ، فان الوضع اختلف منذا اواخر الستينات من القرن التاسع الميلادى — اى منذ بداية تأسيس الاسرة المقدونية فى بيزنطه بعد أن ظهرت روح جـــديدة من التعاون بين اسطول كريت والاساطيل الاسلامية الاخرى فى البحر المتوسط ، وعلى الاخص اسطول الشام ، وذلك فى مواجهة البحرية البيزنطية .

والواقع أن هذا التعاون فى المجال البحرى بين كريـــت وباقى القـــوى الاسلامية فى البحر المتوسط يكتنفه الغموض الشديد ، فان المصادر المعاصره والمتأخره ، العربية والبيزنطية لا تلقى أية أضواء على ماهية وكيفية ومدى هذا التعاون . فلم نعثر على وثائق او نصوص تؤكد تأكيدا قاطعا ان اتفاقيـــة او معاهدة مثلا ، تمت بين كريت وأى من الاساطيل الاسلامية بخصوص التعاون معافى عمل عسكرى مشترك ضد البيزنطيين . وعلى أية حال ، يمكن القول ان هذا التعاون البحرى بين المسلمين ، انما جاء نتيجة لما بلغته البحرية البيزنطية من ازدهار وتقدم ، وعلى الاخص فى اوائل عهد الاسرة المقدونية ، فكان رد الفعل عند المسلمين هو تعاونهم وتكتلهم ومساندتهم لاسطول كريت حتى يستطيع مواصلة جهوده العسكرية ضد الدولة البيزنطية ويرجع هذا التعاون ايضا الى نمو القوى البحرية الاسلامية فى شرقى البحر الابيض المتوسط وغربه

---

(١) لويس : القوى البحرية ، ص ٢٢٧ ، ومايعدها .

يضاف لذلك ، تلك الرابطة التى جمعت بين المسلمين ، سواء فى كريت او فى البلاد الاسلامية الاخرى ، وهى الرغبة الخالصة للجميع فى الجهاد فى سبيل الله ، خصوصا بعد ما شاع فى ارجاء الوطن الاسلامى ، الدور الكبير الذى اضطلعت به جزيرة كريت فى الجهاد ضد البيزنطيين ، والذى اكده احد المعاصرين وهو ابن حوقل الذى قال ان كريت كانت بما فيها «من الرجال والعده والعتاد ، كالنار لهيبها لايفتر ، واوارها لايقصر ، وكان اهلها ينكون فى بلد النصرانية صباح مساء ، نكاية بينه ظاهره ، يوجبها لهم قربهم من مطالبهم ، ومجاورتهم للروم فى مساكنهم (١) » وأيد ابن حوقل فى ذلك أحد الجغرافيين المتأخرين نسبيا وهو ياقوت الذى ذكر ان كريت «كانت من اعظم بلاد المسلمين نكاية على الروم (٢)» وقد هيأ لها هذا الدور الفرصه لان تتبوأ مكانا مرموقا فى طليعة القوى الاسلامية المواجهة للعدو المشترك ولهذا اصبحت معظم الاساطيل الاسلامية ترنو للاشتراك مع اسطول كريت فى عملياته العسكرية ، دفاعا عن كيانها ، وردا لهجمات العدو المنتظره .

ونظرا للدور الكبير الذى لعبته البحريه فى هذه المرحله من مراحل الصراع بين كريت وبيزنطه ، يجدر بنا ان نلم بنبذه سريعه عن نظام البحريه عند كل من المسلمين والبيزنطيين ، استكمالا للمعالجة الشاملة للموضوع .

كان رجال الاسطول الاسلامى يتألفون من المقاتلين والملاحين ، وكان يرأس المقاتلين بكل سفينه حربيه «قائد» او «مقدم» يتولى تدريب الجند على القتال فى البحر . اما الملاحون فى السفينه فكان لهم رئيسا يعرف باسم «الاشتيام» (٣)

---

(١) ابن حوقل : صورة الأرض ، القسم الأول ، الطبعة الثانية ، ليدن ١٩٣٨ ، ص ٢٠٣ انظر كذلك الفصل الثانى من هذا البحث ص ص١٠٢–١٠٥ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٢٣٦ (طبعة بيروت) .

(٣) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، جـ١١ ، ص ٣٠٤ .

وكان طاقم المركب الحربى الكبير يشتمل على عشرة افراد هم : ريس ريح ، وماسك دفه ، وقبطان ، واربعة نجارين ، وطبيب ، وجراح ، وجلفاط (١)

وكان على الاسطول قائد عام يدعى «امير البحر» أو «والى البحر» أو «امير الماء» (٢) ومن واجباته المحافظة على المراكب وتقويتها وادخار آلاتها حتى اذا تلف شئ منها وجد ما يخلفه ، وان يختار القواد والرؤساء الذين لديهم خبره بمسالك البحر ومراسيه وعلامات الرياح والحركات البحرية الخاصة بالمد والجزر وغير ذلك من امور البحر . وعليه كذلك ان يشرف على شحن المراكب بالاسلحة الخاصة بالقتال وان يحذر الاماكن التى تكثر بها الشعاب وان كان القتال على مقربة من البر والسواحل والجزر ، فمن واجبه ان يجعل عيونه على قمم الجبال حتى لايفاجأ بخطر يأتيه من ناحيتها ، كما يجب عليه ان يكثر من شحن السفن بالمؤن والمياه بكميات مضاعفة (٣) . هذا وكانت تجرى الارزاق على رجال الاسطول كل بحسب رتبته (٤) .

اما عن السفن التى استخدمها المسلمون فى حروبهم البحريه فى هذه الحقبه من الزمن ، فمنها «الشوانى» ومفردها «شينى» ، وكانت من اهم القطع التى يتكون منها الاسطول الاسلامى لانها كانت من اكبر السفن حجما ومن اكثرها

---

(١) ابن المنكلى : الاحكام المملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر ، مخطوط مصور ، لوحة رقم ٢٠ .

(٢) الحسن بن عبد الله : آثار الأول واخبار الدول ، ص ١٩٥ ، الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ١١ ، ص ٢٨٢ ، راجع كذلك ، حسن إبراهيم حسن . تاريخ الاسلام السياسى . ج٣ ، ص ٢٨٨ ، سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٢٧٢ .

(٣) الحسن بن عبدالله : نفس المصدر ، ص ١٩٥ — ١٩٦ .

(٤) الطبرى : نفس المصدر ، ج١١ ، ص ٣١٩ .

استعمالا لحمل المقاتلين . وكانت مزودة بالابراج والقلاع للدفاع والهجوم كما انها مزوده بقاذفات النار الاغريقية . وكان متوسط ما تحمله الشيني الواحده مائه وخمسون رجلا ولها مائه مجداف ، وبعضها يسير بمائة واربعين مجدافا ويرى المؤرخ ارشيبالد لويس ان المسلمين اخذوا هذا النوع من السفن عن البيزنطيين ، الذين كانوا اول من بنى هذه الشوانى (٢) .و«الميريه » وهى نوع من سفن البحر والنهر عرفت فى اواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، ومن نص اورده الطبرى (٣) يفهم منه ان لهذه السفن اربعون مجدافا ، وكانت تستخدم فى القتال . و«الحراقات»وهى سفن حربيه مجهزه بآلات لقذف النيران على الأعداء ، ويذكر المؤرخ دوزى ان هذه السفن قد استخدمها المسلمون بصفة خاصة فى حالات الحصار البحرى لمدن الاعداء ومن السفن (٤) المقاتلة كذلك «الشذا» و«الشلنديه» وقد اخذ المسلمون هذا النوع الاخير عن البيزنطيين (٤) . اما السفن التابعة للاسطول والتى اقتصر استعمالها على النقل فمنها «العشاريات» وهى لنقل المقاتلين والعتاد وتسير بعشرين مجدافا (٥) . و«المعابر» وهى سفن صغيرة الحجم استخدمها رجال الاسطول للعبور من شاطئ لآخر فى وقت الحرب وكذلك لنقل الاسلحه (٦)

---

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٣٩ ، عبد الرحمن ذكى : المتلاح فى الاسلام ، ص ٣٦ .

(٢) لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ص ٣٢٥ .

(٣) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، حوادث عام ٢٦٧ هـ .

(5) Dozy : Supplement aux Dictionnaires Arabes, Tome premier Paris, 1881, p. 274

(٤) انظر التعريف بالشلنديه ص ١٤١ من هذا الفصل

(٥) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ١٩٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ، ص ١٩٩ .

(٦) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، جـ١١ ، ص ٣١٦ .

«والعزازى» وكان استعماله خاصا بنقل المؤن فقط (١) . «والمركوش» واقتصر على حمل الماء (٢) . «والطريده» وهى لنقل الخيل وكان اكثر ما يحمل فيها اربعون فرسا (٣) .

ومن النصوص التى أوردها المؤرخون البيزنطيون اثناء وصفهم لبعض المعارك التى جرت بين البيزنطيين ومسلمى كريت ، يأتى ذكر لبعض انواع السفن المستخدمة فى الاسطول الكريتى ، ومنها على سبيل المثال سفن تدعى كيمباريا Cumbaria ونوع آخر يدعى أنراريا Oneraria (٤) . وقد ذكر الامبراطور ليو السادس فى كتابه «فنون الحرب» Tactica نبذات مختصرة عن هذه السفن ، ومنها يتضح ان الكيمباريا من السفن المقاتله المحدودة الاتساع ولها ثلاثة صفوف من المجاديف ، وقد حرص الامبراطور ليو على ان يشير الى ان المسلمين — بصفة خاصة — قد استخدموها فى حروبهم البحرية (٥) . اما الانراريا فهى من السفن التى تستخدم فى النقل ولاتستخدم فى القتال ، وكان استعمالها مقتصرا على نقل الاسلحة الحربية والمؤن والالات التى تستخدم فى الحصار ، كما استخدمت كذلك لنقل الخيل (٦) .

والى جانب السفن الكبيرة كان الاسطول يشتمل كذلك على زوارق صغيرة سريعة الحركة تستخدم فى الانهار الضيقة والخلجان التى لا تستطيع السفن الكبيرة الدخول اليها ، كذلك كانت تستخدم لاحراق سفن الاعداء

---

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ .

(٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ .

(٣) ابن مماتى : نفس المصدر ، ص ٣٣٩ .

(4) Theophanes Continuatus vol. V p. 298.

(5) Leonis Philosophi, Tactica, parisina, 1863, p. 1011.

(6) Ibid, p. 994.

فتلتقى بها النيران وتهرب اولتقطع عليها الطريق ، فاذا هوجمت لاذت بالفرار الى الاماكن الضيقة فلا تستطيع السفن الكبيرة اللحاق بها (١) .

وفيما يتعلق بالاسلحة التى استخدمها المسلمون فى الحرب البحريـــة ، فمنها السهام والنشاب والرماح والقسى والخناجر والباسليقات وهى سلاسل بعصى فى رأسها رمانه من الحديد ، والمجانيق ، والعرادات وهى صورة من المجانيق . وقد استخدم المنجنيق لالقاء قوارير ما يسمى بدهن المنجنيق ، وهو خليط من النفط والكبريت وبعض المواد الدهنية ، وتقلب هذه المواد كلها على النار حتى تصبح شيئا واحدا يوضع فى قارورة من الجص وترمى بـــه المجانيق على سفن الاعداء ، فاذا وقعت القارورة على مكان ما فى السفينـــة لطخته بالدهن ، ثم يعملون على القاء بعض المشاعل على نفس المكان فيشتعل كله ولا تطفأ النار حتى تصير السفينه كلها رمادا (٢) .ومن الاسلحة التى استخدموها ايضا «اللجام» وهو عباره عن قطعة طويلهمن الحديد محددة الرأس جدا ، واسفلها مجوف كسنان الرمح تدخل من اسفلها فى خشبة كالقنـــاة بارزة فى مقدمة السفينه يقال لها «الاسطام» فيصبح اللجام وكأنه سنان رمح بارز من مقدمة السفينة ، ويحتالون فى طعن سفن الأعداء به ، فاذا اصـــاب جانب السفينة المعادية بقوة نقبه حتى يخشى غرقه ، وحينئذ يطلب العدو التسليم وكان بعض الملاحون ممن يجيدونالغوص ، يغوصون فى الماء حتى يصلوا الى سفن الاعداء فينقبونها حتى يتسرب اليها الماء وتغرق . وفى حالة اقتراب سفن المسلمين من سفن الاعداء كان المسلمون يطرحون بينهما الواحا من الخشب

---

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، خ١١ ، ص ٢٩٠ .
ابن المنكلى : الاحكام المملوكية ، لوحة ٢١ .
(٢) ابن المنكلى : الاحكام المملوكية ، لوحة ٢٨ .

كالجسر وينتقلون عن طريقها الى سفن الاعداء فيقاتلونهم وجها لوجه . كما كانوا يجعلون فى اعلى السفن صناديق مفتوحه من اعلاها يسمونها «التوابيت» يصعد اليها الرجال قبل استقبال العدو فيقيمون فيها ومعهم الحجارة يرمون بها العدو مستورون بالصناديق ، او يرمونه بقوارير النفط وقدور الصابون اللين حتى تنزلق اقدامهم ، او قدور بها حيات وعقارب . على ان اكثر ما كان يخشاه المسلمون من البيزنطيين هو النار الاغريقية وذلك بسبب سرعة اشتعال القار الذى تطلى به السفن ، على انهم كانوا يتغلبون عليها بأن يعلقوا حول المراكب الجلود واللبود المبلولة بالخل والشب والنطرون لمقاومتها لهذه النيران (١) .

ومن أساليب القتال البحرى التى عرفها المسلمون ، تنظيمهم للاسطول على هيئة قلب وميمنه وميسره وساقه ، أو ان تصطف السفن صفا واحدا لمقابلة الأعداء ، تماما مثل التشكيلات التى استخدموها فى الجيش البرى . (٢) وقد أجاد المسلمون فنون الحصار البحرى ، واستخدموا فيه نفس الآلات التى استخدموها فى الحصار البرى من المعاول والفؤوس والمناشير ، إلى جانب السلالم لتسلق الأسوار ، والكلاليب المربوطه بالحبال يرمون بها أعلى السور ثم يتسلقون الحبال ، كما استخدموا الحطب والقار والكبريت المشتعل لاحراق الاسوار . وقد استخدم مسلمو كريت كل هذه الاساليب فى حروبهم مع الدولة البيزنطية . ومن الأمثلة لذلك ماحدث أثناء حصارهم البحرى لمدينة سالونيك البيزنطية فى عام ٩٠٤ (٣) .

---

(١) الحسن بن عبدالله : آثار الأول : ص ١٩٦ – ١٩٧ ، الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، حـ١١ ، ص ٢٨٥ ، ابن المنكلى : الاحكام المملوكية ، لوحة ٨ ، لوحة ٢٧ .

(٢) ابن المنكلى : الاحكام المملوكية ، لوحة ٢٠ .

(٣) انظر تفاصيل حصار المسلمين لسالونيك فى الفصل الثالث من هذا البحث ص ١٨٣ ومابعدها

ومن هذا العرض لنظم الأسطول عند المسلمين يمكن القول أنهم قد نهضوا بقوتهم البحرية نهضة مباركة كان لها أثر بعيد فيما قاموا به من فتوحات وما أحرزوه من انتصارات على المعتدين .

أما فيما يتعلق بالبحرية البيزنطية . فالمعروف أنها لعبت دورا هاما أثناء الصراع الذى اشتعل بين الدولة البيزنطية والمسلمين ، وخاصة فى عهد الامويين الذين حاصروا القسطنطينية برا وبحرا أكثر من مره ، وقد أبلى الأسطول البيزنطى بلاء حسنا أثناء عمليات الحصار ، واضطر السفن الإسلامية إلى رفع الحصار فى كثير من الحالات (١) . على أنه بسقوط الدولة الأموية فى ٧٥٠ م (١٣٢هـ) انتقلت قاعدة الخلافة الإسلامية من إقليمى البحر المتوسط وهما الشام ومصر ، إلى إقليم داخلى فى غربى آسيا ، اذ صارت بغداد العاصمة الجديدة للخلافة العباسية ، وهى بعد مدينة فارسية فى أفكارها وثقافتها ، وتتجه نحو وسط آسيا والمحيط الهندى ، لا صوب البحر المتوسط . وقد ترتب على ذلك أن الخلفاء العباسيين لم يواصلوا النشاط البحرى لاسلافهم الأمويين ، فخفت حدة البحرية الاصطدامات البحريه بين المسلمين والبيزنطيين . وبالتالى بدأ الاباطرة البيزنطيون يوجهون اهتماما أقل إلى بحريتهم (٢) .

والواقع أنه منذ القرن الثامن الميلادى وجدت عوامل أخرى ساعدت على تزايد هذا الاهمال ، ومنها الصراع العنيف الذى قام فى الدولة البيزنطية حول عبادة الصور المقدسة . فالمعروف أن أهالى الثغور البحرية البيزنطية وخاصة فى الجزء الأوروبى من الإمبراطورية كانوا من الايقونيين ، وحين

---

(١) لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الابيض المتوسط ، ص ٩٦ – ١٠٨ .
(٢) لويس : القوى البحرية والتجارية ، ص ١٥٧ .

قام أباطرة الأسرة الأيسورية (٧١٧ — ٨٢٠ م) بمناهضة هذه العبادة ، تعرضوا لسخط بحارة هذه الاساطيل ، وظهرت حركات التمرد بينهم على الحكم فى بيزنطه ، بل ونصبوا فى بعض الاحيان أباطرة جدد وتقدموا لمهاجمة القسطنطينية ، ونتيجة لذلك عمل أباطرة الأسرة الأيسورية على الحط من شأن الاسطول وبحارته حتى لاتقوى شوكتهم وتزداد تبعا لذلك حركات التمرد بينهم (١) . ثم جاءت ثورة توماس الصقلبى التى بلغت ذروتها فى عهد الأمبراطور ميخائيل الثانى (٨٢٠ — ٨٢٩ م) لتقضى على البقية من أساطيل الولايات البيزنطية (٢) .

وقد ترتب على ذلك نتائج خطيرة للغاية ، إذ أن الأساطيل الإسلامية استطاعت أن تظهر مرة ثانية فى القرن التاسع الميلادى، واستولت على جزيرة كريت فى ٨٢٧ م / ٢١٢ هـ التى تحولت منذ ذلك الوقت إلى قلعة إسلامية حصينة كانت مصدر إزعاج دائم لبيزنطة بما شنه المسلمون بها من غارات متكررة على جزر وسواحل البحر الأيجى . وفى نفس العام تم فتح صقلية ، وأخذوا فى الأغارة على الممتلكات البيزنطية فى جنوب إيطاليا . وهكذا أصبح من الضرورى أن يعيد أباطرة الأسرة العمورية (٨٢٠ — ٨٦٧ م) بناء قوتهم البحرية ، ليتمكنوا من صد هذا الزحف البحرى الإسلامى والصمود أمامه وشجعهم على ذلك القضاء النهائى على المشكلة الدينية ، باعادة الارثوذكسية الصحيحة فى عام ٨٤٣ م (٣).

---

(١) رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ١٧٧ ، بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٨٨ — ١٨٩ .

(٢) سبق التعرض لآثار هذه الثورة على البحرية البيزنطية فى الفصل الأول من البحث.

(٣) لويس : القوى البحرية والتجارية ، ص ٢٤٣ ، رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ١٧٧ — ١٧٨ .

وقد واصل الأباطرة المتقدمون من الأسرة المقدونية (٨٦٧ –١٠٢٥ م) إهتمامهم بالأسطول ، وبلغ هذا الأهتمام ذروته فى عصر الامبراطور رومانوس ليكابينوس (٩١٩ – ٩٤٤ م) ، فقد كان هذا الإمبراطور قائدا عاما للأساطيل البيزنطية قبل اغتصابه للعرش الأمبراطورى ، لذلك أولى إهتماما خاصا للبحرية ، فشرع فى بناء سفن أكثر ضخامه وأشد قوة عن ذى قبل ، وبذلك تكون الاسطول البيزنطى الذى أصبح أداة فعالة فى يد البيزنطيين استخدموه لاسترداد كريت فى أوائل الستينيات من القرن العاشر الميلادى(١)

ولقد وصلتنا معلومات قيمة عن نظام البحرية البيزنطية فى عصرها الذهبى هذا ، اذ أورد الإمبراطور ليو السادس (٨٨٦ – ٩١٢ م) فصلا عن البحرية البيزنطية فى كتابه « فنون الحرب » Tacrica ، ولعل المصدر الأهم هو كتاب الأمبراطور قسطنطين السابع (٩١٢ – ٩٥٩ م) المسمى « المراسيم الإمبراطورية وهو باليونانية إذ أورد فى هذا الكتاب تفاصيل الحملتين البحريتين اللتين أرسلتهما الإمبراطورية البيزنطية لاستعادة كريت من المسلمين ، وقد تم أرسالها فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى، و بالعودة لتفاصيل هاتين الحملتين البحريتين ، يمكن الالمام بصورة واضحة عن نظام البحرية البيزنطية فى تلك الحقبة من التاريخ .

كانت البحرية البيزنطية تتكون من :

أولا : الاسطول الامبراطورى وهو بمثابة العمود الفقرى فى البحرية البيزنطية ومقره الدائم عند القسطنطينية ، وكان بحارته من البيزنطيين ، وغالبا ماكان يضم اليهم أعداد قليلة من البحارة المرتزقة مثل الروس (٢) :

---

(١) لويس : القوى البحرية والتجارية ، ص ٢٤٥ .

(٢) انظر كتاب الامبراطور قسطنطين السابع « المراسم الامبراطورية » ، الجزء الثانى ص٦٥١ (باليونانية).

ثانيا : أساطل الولايات ، وقد تكونت من أساطيل الولايات البحرية البيزنطية وكانت فى ذلك الوقت تشمل : —

١ — إسطول ثيم كبير هايوت (٢) .

٢ — إسطول ثيم ساموس .

٣ — إسطول ثيم البحر الإيجى.

٤ — إسطول ثيم الهيلاس « بلاد اليونان».

هذا بالاضافة لبعض الوحدات البحرية التى كانت ترابط عند نيقوبوليس (٣) والبلوبونيز (٤) وكيفا لونيا (٥)

وكان بحارة هذه الأساطيل الإقليمية يتكونون من رعايا الإمبراطورية ومن المتبربرين المستقرين فى لأراضى البيزنطية مثل المردة وقد (٦) احتفظ كل أسطول إقليمى . بمستلزماته الخاصة من سفن الحرب والبحاره

---

(١) بشان اساطيل الولايات البحرية لبيزنطية ، انظر نفس المصدر السابق ، ص ٦٥٢ — ٦٥٣ .

(٢) تقع كبير هايوت على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى .

(٣) تقع نيقوبوليس على ساحل نهر الدانوب .

(٤) البلوبونيز هى شبه جزيرة المورء ، انظر أطلس اوكسفورد ص ٣٩ .

(٥) كيفالونيا هى جزيرة صغيرة فى البحر الادرياتى عند مدخل خليج كورنثه ، انظر اطلس اوكسفورد ، ص ٣٩ . وبشأن هذه الوحدات البحرية الثلاث انظر كتاب الامبراطور قسطنطين السابع ، حـ٢ ، ص ٦٦٥ .

(٦) المرده هم جماعات جبلية كانت تسكن نواحى لبنان من قديم الزمن ، وكانت الدولة البيزنطية تستخدمهم فى الدفاع عن حدودها الشرقية ، وبعد فتح المسلمين للشام تراجع المرده إلى أسيا الصغرى وهناك قاموا يحاربون فى صفوف البيزنطيين حتى تم نقلهم فى عصر الامبراطور جستنيان الثانى (٦٨٤ — ٦٩٥ م) إلى الولايات الأوروبية التابعة للدولة البيزنطية ، انظر :

Schlumberger, un Empereur Byzantin, p. 50.

راجع كذلك بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٥٣ ، ص ١٩٣ ، حاشية رقم ١ .

ودور الصناعة واحواض البناء والمعدات البحرية الأخرى . وذلك على نفقة الاقاليم التى ترابط فيها هذه الأساطيل (١) . وفى حالة القيام بحملة بحرية كان على هذه الولايات أن ترسل بعض القطع الحربية من أساطيلها بكل لوازمها واستعداداتها لتساهم مع الأسطول الإمبراطورى فى نشاطه العسكرى .(٢) .

وكانت رتب العاملين بالأسطول البيزنطى تتدرج فى شكل هرمى ، يبدأ من القاعدة بالكوميتيس Comites ، وهو الذى يتولى قيادة مجموعة صغيرة من السفن لاتقل عن ثلاث ولا تزيد عن خمس ، ويدين الكوميتيس بالولاء المباشر للقائد Dux ، الذى يتقدم عليه حامل الرمح Hestes وهذا يدين بالولاء للضابط Mandata ، الذى يخضع بدوره للدرنجار Drungarius ، الذى يتسلم الأوامر من الأمبراطور ذاته (٣) .

وكان جميع العاملين بالبحرية البيزنطية يتقاضون اعطيه مثل زملائهم العاملين بالجيش ، اما الاعطيه الأضافية التى كانوا يتقاضونها عند الاشتراك فى حملة بحرية فكانت تتحملها كلها الخزينة الإمبراطورية ، وقد اختلفت أعطية البحارة تبعا لاختلاف الأسطول الذى ينتمون إليه . ويفهم مما أورده الأمبراطور قسطنطين السابع أثناء عرضه لأعطية البحارة خلال حملة عام ٩١١ ضد كريت ، أن بحارة الأسطول الإمبراطورى كانوا يتقاضون عطاء أكبر من الذى يتقاضاه بحارة الأسطول الإقليمى (٤) .على أنه فى حالات قليلة كان

---

(١) لويس : القوى البحرية والتجارة ، ص ٢٤٣ – ٢٤٤ .

(٢) انظر كتاب الامبراطور قسطنطين السابع « المراسم الامبراطورية » ، جـ٢ ، ص ٦٥٢ – ٦٥٣ (باليونانية) .

(3) Leonis philosophi, Tactica, p,. 998.

(٤) قسطنطين السابع : المراسم الامبراطورية ، جـ٢ ، ص ٦٥٤ – ٦٥٥ (باليونانية) .

لأباطرة يجذلون العطاء للقادة والبحارة المشتركين فى بعض الحملات ليكون ذلك دافعا لهم على بذل اقصى جهدهم من أجل احراز النصر (١) .

اما عن السفن التى استخدمت فى الأسطول البيزنطى فأنها أختلفت باختلاف العدو الذى تحاربه بيزنطه ، فقد قال الامبراطور ليو البسادس مخاطبا قائد الأسطول : أن حجم السفن التى تبنيها سيتوقف على العدو الذى تحاربه ، والأمر يختلف بين العرب والروس . فالعرب يستخدمون سفنا كبيرة وبطيئة نسبيا ، بينما يستخدم الروس سفنا خفيفة وسريعة الحركة . والسبب أن غارات الروس فى البحر الأسود ، تحدث عند مصبات الأنهار حيث يتعذر استخدام سفنا أكثر من حمولة معينة (٢) . ومن السفن التى استخدمها البيزنطيون فى حربهم مع المسلمين تلك السفن المعروفة باسم الدرمونه Dromones — وهى سفن كبيرة تستخدم فى القتال ، وقد وجه البيزنطيون عناية كبيرة لصناعة هذا النوع من السفن وحرص الإمبراطور ليو السادس على أن ينصح الموكلين ببناء هذه السفن قائلا « ينبغى أن تكون ألواح الخشب التى تصنع منها هذه السفن متوسطة ، لا كبيرة الغلظ فتبطىء فى سيرها ، ولا بالرقيقة فتكون حينئذ عرضة للغرق عند التناطح مع سفن الأعداء ، أو حين تعرضها لأمواج البحر» (٣) . وتسير الدرمونه بأربعة صفوف من المجاديف ، وبلغ عدد مجاديفها من ٢٠٠ إلى ٢٣٠ مجداف ، وتتسع الواحده منها لسبعين مقاتلا عدا المجدفين ، ومنها ماهو أكبر فيتسع

(1) Symeon Magistri, op. cit., p. 624.

(2) Leonis Philosophi, Tictica, p. 992.

(3) Ibid, p. 991.

لمائتين وعشرين رجلا . وإلى جانب ذلك كان بكل دروموته شخصا موكلا بحمل العلم ، وشخصان مخصصان لتوجيه الدفة ، وآخر موكلا بالهلب(١) .

ومن السفن الكبيرة المقاتلة كذلك ، نوع « البامفيليه Pamphyli ، وهى أسرع من الدرمونه ، وغالبا ماكان قائد الأسطول البيزنطى فى القرن العاشر الميلادى يتخذ سفينتهمن هذا النوع . وقد وصل عدد مجاديفها إلى ١٦٠ مجدافا ، وكانت حمولتها من الرجال المقاتلين من ١٣٠ إلى ١٦٠ رجلا (٢). وغالبا ماكان المحاربون على ظهر هذه السفن من المنطقة الجبلية المواجهة لبامفيليه ، (٣) ويعرفون بأسم البامفيليين ، ولذلك فقد نسبت اليهم هـذه السفن (٤) .

وهناك السفن المعروفة بأسم الشلندية Chelendia — وكانت تتسع لأعداد من المقاتلين تتراوح مابين ١٠٨ إلى ١٥٠ مقاتلا (٥) . وقد استخدم البيزنطيون هذا النوع من السفن بكثرة ، وتذكر المصادر العربية أن الأسطول البيزنطى الذى خرج للأغارة على مدينة دمياط فى عام ٢٣٨ هـ / ٨٥٣ م انتقاما للهزائم التى انزلها الأسطول الكريتى بالبيزنطيين ، كان يتكون من ثلاثمائة شلندية (٦) . وقد وصفها المؤرخ ابن مماتى بقوله : مركب مسقف تقاتـل

---

(١) قسطنطين السابع : المراسم الامبراطورية ، جـ٢ ، ص ٦٥٢ — ٦٥٣ (باليونانية).

(٢) نفس المصدر سابق ، جـ٢ ، ص ٦٥٣ .

(٣) تقع بامفيلية فى ثيم كبير هايوت على ساحل اسيا الصغرى المواجه للبحر المتوسط ، انظر الخريطة الملحقة بكتاب رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٤٠٦ .

(٤) قسطنطين السابع : المراسم الامبراطورية ، جـ٢ ، ص ٧٨٧ ، (باليونانية)

(٥) نفس المصدر ، جـ٢ ، ص ٦٦٤ (باليونانية) .

(٦) انظر على سبيل المثال ، الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، جـ١١ ، ص ٤٨ ، الكندى : ولاة مصر ، ص ٢٢٧ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ٢٦ ، ابن خلدون : العبر ، جـ٣ ، ص ٢٧٧ .

الغزاه على ظهره ، وجذافون يجذفون تحتهم (١). وثمة نوع من السفن يطلق عليها اسم جاليا Galea وهذه السفن أصغر حجما من السفن السابقة ولهـا صفوف مفرده من المجاديف (٢) .

وإلى جانب هذه السفن الكبيرة ، كانت هناك سفن صغيرة سريعـة الحركة أشبه ماتكون بالزوارق الكبيرة ، ومنها النوع المعروف بأسم الأوسيا Ousia ، وقد صنع على نفس طراز القوارب الروسية ، ويتسع لعدد من البحارة يتراوح مابين ٥٠ إلى ٦٠ بحارا ، وكانوا غالبا من البحارة الروس الذين يستعان بهم فى الأسطول البيزنطى (٣) . وبالأضافة إلى السفن الحربيـة كانت هناك سفن أخرى لنقل الخيل والمؤن، وغيرها من مستلزمات الجنود وغالبا ماكانت السفن التجارية تحول فى وقت الحرب إلى سفن للنقـل (٤) .

وكانت السفن الحربية الكبيرة تزود بأبراج من الخشب ، وكان موضع البرج فى الغالب فى المؤخرة ، وأثناء القتال ، كان البحارة يتخذون أماكنهم فى داخل البرج حتى يكونوا بمأمن من هجمات العدو ، وفى نفس الوقت يوجهون اليه بأسلحتهم التى كان أهمها قنابل يدوية تحتوى على المركب الكيميائى للنار الاغريقية . وكانت هذه لقنابل تنفجر وتشعل النار فى سفن الأعداء كما كانت المراكب الكبيرة تزود كذلك بقاذفات النيران الأغريقية . (٥) ومن

---

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص . ٣٤ .

(2) Leonis Philosophi : Tactica, p. 994.

(٣) قسطنطين السابع : المراسيم الامبراطورية ، جـ٢ ، ص ٦٦٤ (باليونانية) .

(4) Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 64.

(5) Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 64; Leonis Philosophie, Tactica, p. 1006.

الأسلحة التى استخدمها الأسطول البيزنطى كذلك ، شوك من الحديد ذات أطراف حادة كانت تستخدم لثقب سفن الأعداء ، وحراب مسنونة لتمزيق أشرعة وحبال السفن المعادية ، وكلاليب حادة مزودة بسلاسل حديدية كانت تستخدم لجذب سفن الأعداء القريبة والأشتباك معهم وجها لوجه . بالأضافة للسيوف والسهام الكبيرة والصغيرة ، كما كان البحارة يزودون بالدروع السمكية ، والخوذ الفولاذية التى كان بعضها يغطى كل الوجه وذلك لحمايتهم من أسلحة الأعداء . وكان لكل سفينة حمولة محدده من الأسلحة ومهمات الحرب توضع بها ليستخدمها المقاتلون . كما كان لابد من وجود كميات مضاعفة بكل سفينة من قطع الغيار اللازمة لها مثل المجاديف والحبال والبكرات والواح الخشب والقار ، حتى تكون تحت إيدى البحارة عند الحاجة اليها ، كذلك لابد من وجود نجار ومعه كل مايلزمه من معدات كالازميل والمنشار وغيره مما يحتاج اليه فى عمله .

ومن فنون الحرب البحرية التى يوصى بها الأمبراطور ليو السادس قائد الأسطول البيزنطى ، تجنب المعارك الفاصلة مع الأعداء ، إلا إذا كان أسطول العدو يعانى من المتاعب . ويرى أن المناوشات المنفصلة أفضل بكثير من المعارك الفاصلة ، فإن اضطرته الظروف لخوض المعركة ، فان ينصحه بالقتال فى هيئة التشكيلة الهلالية (أى النصف دائرة) (٢) .

---

(١) لقد اورد الامبراطور قسطنطين السابع فى كتابه « المراسم الامبراطورية » الحمولة المخصصة لكل دروموناه من الأسلحة ومهمات الحرب ، انظر التفاصيل فى الفصل الثالث من هذا البحث . انظر كذلك ،

Leonis Philosophie, Tactica, p. 994

(2) Leonis Philosophie, Tactica, p. 1006.

وقد وجه البيزنطيون أهتماما كبيرا إلى علم العمليات البحرية ، فدرس القادة البحر والأوصاف الطبيعية للسواحل والجزر ، وخصائص الرياح وأتخذوا تجاهها الأحتياطات اللازمة ، وكانت الأشارات تتم بين السفن عن طريق الرايات نهارا ، واستخدام الأضواء ليلا (١) . وفى حالة القيام بحملة بحرية ضد الاعداء كانت بعض السفن الحربية البيزنطية ترابط فى مياه القسطنطينية لحمايتها ضد أى هجوم يقع عليها أثناء غياب الأسطول . (٢)

وهكذا يتضح مدى التقدم والأزدهار الذى أحرزته البحرية البيزنطية خلال هذه المرحلة من تاريخ الأسرة القدونية ، الأمر الذى أدى إلى رد فعل إيجابى لدى المسلمين ، تمثل فى تعاون الاساطيل الإسلامية فى البحر الأبيض المتوسط مع أسطول كريت . حتى تستطيع هذه الإمارة المجاهدة مواصلة أنتصاراتها العسكرية على العدو البيزنطى .

وكان الامبراطور باسيل المقدونى هو أول من عانى من جراء هذا التعاون البحرى الإسلامى ، ففى السنة الأولى من حكمه أى فى عام ٨٦٧ م (٢٥٣ هـ) قام المسلمون بغارة كبيرة على الساحل الشرقى للبحر الادرياتيكى المعروف بساحل دالماشيا Dalmatia (٣) ، وقد دون هذه الغارة عدد من

---

(١) بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٩٤ ، رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ١٨٣ .

(٢) قسطنطين السابع : المراسيم الامبراطورية ، جـ٢ ، ص ٦٦٤ (باليونانية)

(٣) كانت دالماشيا هذه تابعة للدولة البيزنطية ، وفى عصر الامبراطور هرقل (٦١٠ – ٦٤١م) بدأت القبائل الصقلبية تغزوها وتستقر بالساحل والاماكن الداخلية بها ، ورغم ذلك فقد بقيت بعض المدن تحتفظ بالاستقلال عن هذه القبائل . وأثناء الصراع الداخلى الذى اشتعل فى الدولة البيزنطية حول عبادة الصور والايقونات بدأت هذه المدن تطرح السيادة البيزنطية تدريجيا ، ومنذ النصف الأول من القرن التاسع الميلادى استقلت تماما عن بيزنطة ، انظر :

Finlay, History of Greece, vol 11, p. 248; Ostragorosky, History of Byzantine State, p. 209.

المؤرخين البيزنطيين أمثال الماجستر سيميون ، وقسطنطين السابع ، وصاحب صلة ثيوفان (١) . ويفهم مما رواه هؤلاء المؤرخون أنه أشترك مع أسطول كريت فى هذه الغاره بعض القطع الحربية من أساطيل مدينة قرطاجنة فى شمال إفريقية ، وصقلية ، وجنوب إيطاليا — وهى البلاد التابعة للدولة الأغالبه أنذاك — وكان الأسطول الإسلامى المهاجم يتكون من ٣٦ سفينة حربية ، استعمله المسلمون فى مهاجمة العديد من المدن من بينها مدن بوتوبا Butoba ، وروزا Rosal وديكاتير ، Decatera حتى وصلوا إلى المدينة التجارية الهامة المسماه راجوزا Ragusa ففرضوا عليها حصارا قاسيا ، وحين طال أمد الحصار ، وأشتد الأمر على سكانها ، أرسلوا يطلبون النجده من الإمبراطور باسيل الأول ، الذى وجد فى الطلب الذى تقدموا به الفرصة المناسبة لاعادة فرض السيادة البيزنطية من جديد على هذه المدن . فسارع بارسال أسطول بيزنطى مكونا من مائه شلندية بقيادة البطريق والدرنجار البحرى نقيتاس أوريفاس Nicetas Oryhas ، قائد الأسطول البيزنطى فى ذلك الوقت . وحين علم المسلمون بأقتراب وصول هذا الأسطول ، رفعوا الحصار وأنسحبوا بعد أن ظلوا محاصرين المدينة لمدة خمسة عشر شهرا . وقد أسفرت هذه الغارة عن نتائج هامة فى صالح الدولة البيزنطية ، إذا أستطاع نقيتاس أوريفاس ، أن يعيد توطيد النفوذ البيزنطى على هذه المدن ، التى تعهدت بدفع الجزية السنوية للامبراطورية . كما نجح كذلك فى كسب ولاء القبائل الصقلبية المستقرة بالساحل والمناطق الداخلية وتعهدوا هم أيضا بدفع الجزية السنوية لبيزنطه ، على أن يتمتعوا بأستقلال ذاتى ، هيأ لهم الأحتفاظ بنظام حكمهم (٢) .

---

(١) انظر تفاصيل هذه الغارة فى المصادر التالية :

Symeon Magistri, p. 694; Constantin Porphyrogenety; De Administrando Imperio, p 130; Theophanes Continuatus, Liber V, p. 289.

(2) Contantin Porphyrogenetus, De Administrando Imperio, pp. 130—131

وقد شهد عصر الأمبراطور باسيل الأول مزيدا من الأشتباكات العسكرية مع كريت ، كانت فى نفس الوقت مظهرا من مظاهر التعاون العسكرى بين أسطول كريت والأساطيل الإسلامية فى البحر المتوسط فى مواجهة العدو البيزنطى . وجاء التعاون هذه المرة من جانب مدينة طرسوس ، التابعة وقتذاك لحاكم مصر أحمد بن طولون . والواقع أن هذه المدينة قد أبلت بلاء حسنا فى الجهاد ضد البيزنطين ؛ إذ كانت من الثغور الإسلامية الهامة المواجهة للعدو وكان يتدفق عليها المقاتلون المسلمون من جميع أنحاء العالم الإسلامى ، ليقوموا بواجب الجهاد . وقد وصفها الجغرافى المعاصر ابن حوقل فقال : عليها سوران من حجارة ، كانت تشتمل على خيل ورجال ، وعدة وعتاد وكراع وكان بينهم وبين الروم جبال متشعبه من اللكام (١) كالحاجز بين العملين . ورأيت غير عاقل ممن وسيد حصيف مبرز يشار إليه بالدراية والفهم ، واليقظة والعلم ، يذكران بها مائة الف فارس ؛ وكان ذلك عن قريب عهد من الأيام التى أدركتها وشاهدتها . وكان السبب فى ذلك أنه ليس من مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان وفارس وخوزستان والجبال وطبرستان والجزيرة واذربيجان والعراق والحجاز والشامات ومصر والمغرب ، إلا بها (أى بطرسوس) لأهلها دار ينزلها غزاة تلك البلدة ، ويرابطون بها إذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلاة ، وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة الجسيمة إلى ما كان السلاطين يتكلفونه ، وارباب النعم يعانونه وينفذونه متطوعين متبرعين ولم يكن فى ناحية ذكرتها رئيس ولا نفيس الا وله عليها وقف من ضيعة ذات مزارع وغلات ، أو مسقف من فنادق»(٢) .

---

(١) اللكام ، جبل فى شمال الشام ، يشرف على مدينة انطاكية ، كذلك على المصيصة وطرسوس ومنطقة الثغور ، انظر ، ياقوت : معجم البلدان ص ٣٣٧ (الطبعة الأولى ١٩٠٦ م)

(٢) ابن حوقل : صورة الارض ، القسم الأول ، ص ص ١٨٣ – ١٨٤ .

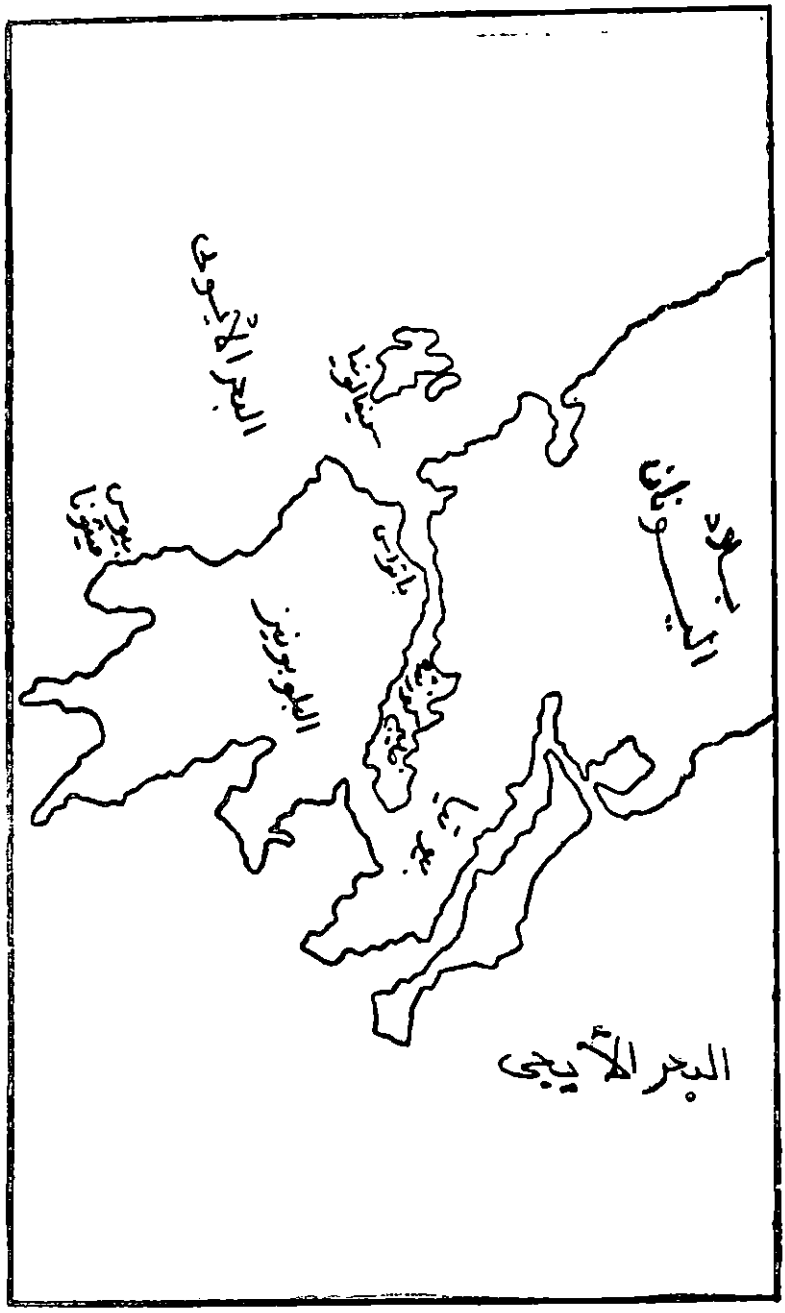

خريطة رقم (٢)

وتحقيقا لدور مدينة طرسوس فى الجهاد ، اشترك اسطولها مع الأسطول الكريتى فى الأغارة على الأراضى البيزنطيه فى عام ٢٦٦ هـ (٢٣ اغسطس ٨٧٩ — ١٢ اغسطس ٨٨٠ م) . وقد عرضت المصادر البيزنطية (١) هـذه الغارة بشىء من التفصيل . أما المصادر العربية فقد أغفلتها ، وتكون الأسطول الإسلامى من ٣٠ قطعة حربية ، واسندت القيادة العامة فيه إلى عامل أحمد بن طولون على الثغور الشامية ، الذى ذكره المؤرخ البيزنطى صاحب صلة ثيوفان بأسم اسمانوس Esmanus (٢) . وقد حددت المصادر البيزنطية الموقع الذى تعرض لهذا الهجوم تحديدا دقيقا ، فذكرت انه وقع على مدينة خالقيس Chalcis — وهى المدينة الرئيسية فى جزيرة يوبيا Eubbea اليونانية (٣) . وأثناء الحصار الذى فرضه المسلمون على هذه المدينة ، أخذ حاكم ثيم الهيلاس (بلاد اليونان) ويدعى اونياتيس Oeniates ، فى تجميع القوات المحاربة داخل المدينة (٤) ، وعندما قامت القوات الإسلامية بمحاولة لاقتحامها اشتبكت معها القوات البيزنطية فى معركة كبيرة ، انتهت بانتصار البيزنطيين ، ولقى قائد الأسطول الإسلامى مصرعه خلالها ، بعد أن قاتل ببسالة هوورفاقه رغم قلة عددهم (٥) .

---

(١) انظر على سبيل المثال :

Theophanes Continuatus, p. 298;

(2) Theophanes Continuatus, p. 298

ولعل اقرب الا سماء العربية إلى هذا الا سم هو « عثمان »

(٣) تقع مدينة خالقيس على مضيق يوريبوس Euripus ، الفاصل بين جزيرتى يوبيا وبيوتيا Boetia اليونانيتين . ، انظر ،

Encyclopedia Britannica, vol 5, p. 194; Cassell's new latin Dictionary, p. 220.

انظر كذلك خريطة رقم (٢) .

(4) Theophanes Continuatus, p. 298.

(5) Theophanes Continuatus, p. 298; كيدرنيوس : ص ٥٨٠.

خريطة رقم (٣)

وانتقاما لهذه الهزيمة ، أرسل حاكم أمارة كريت الذى ذكره صاحب صلة ثيوفان بأسم « سايته » Sacte وذكره جينزيوس بأسم سايبس Saipes وهو الأمير شعيب بن أبى حفص الذى تولى حكم الجزيرة بعد وفاة والـده ابى حفص عمر بن عيسى (١) ، بأسطول مكون من ٢٧ قطعة حربية للاغارة على البلاد البيزنطية ، وقد تولى قيادة هذا الأسطول شخص يدعى فوتيوس Photius ، والمرجح أنه من أصل يونانى واعتنق الأسلام ويصفه كل من صاحب صلة ثيوفان وكيدرينوس بالشجاعة والمهارة الحربية. وقد عبر الأسطول الكريتى مضيق الهلسبونت ، ودخل فى مياه البروبونتيز . وتوغل حتى وصل إلى جزيرة بروكونيسوس Proconnesus (٢) ، التى امتازت بموقعها الاستراتيجى الهام. وقد أسرع قائد الأسطول البيزنطى نقيتاس اوريفاس لمطاردة المسلمين ، حتى التقى الطرفان فى معركة عند قناة فى البحر الإيجى بالقرب من كارديا Cardia وقد انتصر البيزنطيون فى هذه المعركة ، ودمروا عشرين سفينة كريتية ، أشتغل بعضها بفعل قاذفات اللهب البيزنطية وجذبوا بعضها الاخر بالكلاليب واشتبكوا مع المسلمين فى القتال وجها لوجه ، ثم دمروا هذه السفن

---

(١) لم تأت المصادر العربية أو البيزنطية بشىء عن التاريخ الدقيق لوفاة أبى حفص وتولى ابنه الحكم فى كريت ، وكل ماوصل الينا فى هذا المجال ، تلك الاشارة التى أوردها المؤرخ جينيزيوس ، والتى يفهم منها ان الأمير شعيب كان معاصرا للامبراطور باسيل الأول ، انظر : Genesius, p. 47—48 :

(٢) هى احدى الجزر الصغيرة الواقعة فى مياه البروبونتيز ، وتعرف فى الوقت الحاضر ، باسم جزيرة مرمره ، وهى تمتاز باعتدال مناخها ، وأهم محاصيلها القمح ، والعنب الذى يستخرج منه اهاليها النبيذ ، أنظر :

La grande Encyclopedia, vol, 23, p. 205.

واغرقوها ، أما البقية الباقية من الأسطول الكريتى فقدسارعت بالفرار بعدأن أصيب معظم من بها بالجراح (١) .

على أن المسلمين بكريت لم يستكينوا لهذه الهزيمة ، بل قاموا بتنظيم أسطول آخر رأسه فوتيوس للمرة الثانية ، وعادوا بعد أيام قلائل من المعركة الأولى لمهاجمة بعض المدن على الساحل الجنوبى الغربى لشبه جزيرة البلوبونيز ؛ مثل ميثونا Methona ، وبيلوس Pylus ، ثم واصلوا تقدمهم نحو الشمال حيث هاجموا مدينة باتراس Patras (٢) وأخذوا يخربون الأماكن المحيطة بكورنثه والسواحل الغربية لبلاد اليونان . وأثناء طواف نقيتاس اوريفاس باسطولـه حول البلوبونيز ، شاهد السفن الكريتيه تعيث فى الأراضى البيزنطية ، فقام بعمل كمين لها ، بأن توارى بسفنه فى خليج كورنثه ، ثم فاجأها بالهجوم ودمر الأسطول الكريتى عن آخره ، وقتل البيزنطيون اعدادا كبيرة مـن المسلمين كان من بينهم فوتيوس نفسه ، كما اسروا اعدادا أخرى . ويسوق المؤرخان البيزنطيان صاحب صلة ثيوفان وكيدرينوس أمثلة واضحة للوحشية التى عامل بها البيزنطيون الأسرى المسلمين ، إذ تم تقطيع اجساد بعضهم اربا كما تم نزع جلد البعض الأخر وهم أحياء (٣) .

والواقع أن هذه الانتصارات التى احرزها البيزنطيون على المسلمين فى هذه المرحلة ، كانت أثرا من آثار النهضة البحرية الكبرى التى بلغتها الدولة البيزنطية فى عهد الامبراطور باسيل الأول ، نتيجة للعناية والأهتمام الكبيرين اللذين وجههما هذا الإمبراطور إلى هذا المجال الحيوى فى دولته . على أن هذه

---

(1) Genesius, p. 48 ; Theophanes Continuatus, pp. 299—300;
راجع : ايضا كيدرينوس ، موجز التاريخ ، ص ٢٢٧ . باليونانية .

(٢) انظر الخريطة رقم (٢) .

(3) Thephanes Continuatus, P. 300
كيدرينوس ، موجز التاريخ ، ص ٢٢٧ .

الهزائم التى لقيها المسلمون أمام الأسطول البيزنطى كانت لها نتائج بعيدة المدى فهى لم تدفعهم إلى الاستكانة والاستسلام ، ولم تدخل اليأس إلى نفوسهم ، وانما كان لها رد فعل مضاد ، إذ ادت إلى ازدياد تعاونهم فى المجال البحرى بشكل أدى فى النهاية إلى احرازهم انتصارات باهرة على الدولة البيزنطيـة .

ولعل من أهم ماأسفر عنه التعاون البحرى بين الأسطول الكريتى والأساطيل الأسلامية الأخرى فى البحر المتوسط ، ذلك الأنتصار العظيم الذى احرزته البحرية الإسلامية على الدولة البيزنطية فى عام ٩٠٤ م ، والخاص بالهجوم على مدينة سالونيك . ومصدرنا الرئيسى فى هذا الموضوع هو كتاب « قهر سالونيك » وهو مدون باليونانية الذى كتبه يوحنا كامينياتى ، وهو احد رجال الدين من أهالى سالونيك ، وكان شاهد عيان للغارة التى قام بهـا المسلمون على مدينته (١) ، انتقاما للهزائم التى لحقت بهم أمام البحرية البيزنطية فى عهد باسيل الأول . وقد تعرض لهذه الغارة كذلك ، عدد من المؤرخين البيزنطيين ، منهم على سبيل المثال موناخوس ، وصاحب صلة ثيوفان ، وكيدرينوس (٢) غير أن اشاراتهم كانت شديده الإيجاز إذا ماقورنت بالعرض المسهب الذى قدمه يوحنا كامينياتى . أما المصادر العربية ، فقد أشارت هى الأخرة إلى هذه الغارة ، ولكن فى عبارات مبهمة مقتضبة لاتفى بالغرض المطلوب . ونورد على سبيل المثال ، ماذكره المؤرخ ابن الأثير فى حوادث عام ٢٩١ هـ (٢٤ نوفمبر ٩٠٤ م) إذ قال : «وفيها صار المعروف بغـلام زرافه من طرسوس نحو بلاد الروم ، ففتح مدينة أنطاكية ، وهى تعـادل

---

(١) للمزيد من المعلومات عن كامينياتى ، انظر ص١٤

(2) Monachus, p. 862—863; Theophanes Continuatus, Liber VI, p. 368

كيدرينوس ، موجز التاريخ ، صص ٢٦١ – ٢٦٢ ، باليونانية .

القسطنطينية ، فتحها بالسيف عنوة ، فقتل خمس آلاف رجل ، واسر مثلهم واستنقد من الأسارى خمسة آلاف ، وأخذ لهم ستين دركبا ، فحمل ماغنم لهم من الأموال والمتاع والرقيق . وقد ر نصيب كل رجل ألف دينار . وهذه المدينة على ساحل البحر ، فاستبشر المسلمون بذلك»(١) . وذكر كل من الطبرى وابن خلدون وابن تغرى بردى والحافظ شمس الدين نفس هذا المعنى(٢) .

وهناك مايدعو للاعتقاد أن هذا النص يتعلق بفتح مدينة سالونيك، وذلك لأكثر من سبب ، منها أن التاريخ الذى ذكره المؤرخون لهذه الغزوة وهو ٢٩١هـ يوافق تاريخ غزو سالونيك فى ٩٠٤م . كما أن غلام زرافة الذى ذكر المؤرخون المسلمون أنه قائد الأسطول الإسلامى أثناء هذه الغارة . هو نفسه ليون الطرابلسى الذى قاد الأسطول الإسلامى المغير على سالونيك. ذلك أنه يفهم من رواية ابن الأثير وغيره من المؤرخين المسلمين الذين سبقت الأشارة اليهم . أن اسم غلام زرافة . ليس الإسم الحقيقى لهذه االشخص ، وانما هو اسم اشتهر به . وبالبحث والتنقيب فى المصادر العربية عن الأسم الحقيقى له ، امكن العثور فى كتاب «التنبيه والأشراف » للمسعودى على نص يقول : «بند سالونيكه ، التى افتتحها لاون ، غلام زرافه»(٣) وهكذا يتضح أن الأسم الحقيقى لغلام زرافة هو لاون .

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ١٧٤ .

(٢) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، جـ١١ ، صـ٥ ، ابن خلدون : العبر ، جـ ٣ ، ص ٣٥٧ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، خـ٣ ، ص ١٣٢ ، الحافظ شمس الدين : دول الاسلام ، جـ١ ، ص ١٣٨ .

(٣) المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص١٨٠ .

وبالعودة إلى المصادر البيزنطية ، نجد أنها جميعا وبلا استثناء ، تؤكد أن قائد الأسطول الإسلامى الذى أغار على سالونيك يدعى ليون — Leon . وتلقى هذه المصادر المزيد من الضوء على ليون فتقول ، أنه ولد من أبوين مسيحيين فى إقليم أضاليا ، فى ولاية بامفيلية على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى وكان يسمى آنذاك ليون الاضالى وعندما بلغ مرحلة الشباب ، ارتد عن الدين المسيحى واعتنق الإسلام ، ورحل إلى البلاد الشامية حيث استقر بمدينة طرابلس على الساحل ، ومن طول أقامته بهذه المدينة اكتسب لقب الطرابلسى فأصبح يعرف لديهم بأسم ليون الطرابلسى (١) . وبناء على ذلك يكون غلام زرافه هو ليون الطرابلسى قائد الأسطول الإسلامى الذى أغار على سالونيك فى عام ٩٠٤م والذى ذكره المسعودى تحت اسم لاون .

أما فيما يتعلق بمدينة انطاكية التى يذكر المؤرخون المسلمون أن الهجوم وقع عليها ، فأنه ليس هناك مجال للقول بأنها هى نفسها مدينة أنطاكية الشامية فقد ذكر ابن الأثير وغيره من المؤرخين المسلمين الذين تعرضوا لهذه الغارة أن مدينة انطاكية هذه «تعادل القسطنطينية» ، وانطاكية الشامية لا ينطبق عليها هذا الوصف . فرغم تمتعها بميزات عديدة ، مثل تمتعها بمركز دينى هام نظر لكونها مدينة القديسين والبطاركة العظام والمجامع الدينية العديدة ، ورغم تمتعها أيضا بمركز تجارى ممتاز نظرا لوقوعها عند ملتقى بعض الطرق الرئيسية كالطريق منها إلى حلب فى شمال الشام ، ومنها إلى ميناء اللاذقية الذى يطل على البحر المتوسط ، وطريق آخر يربطها بقيليقيه ، ورغم الميزات التى حبتها بها الطبيعة ، من خصوبة التربة ، إلى توفر المياه النابعة من الجبل الذى

(١) كيدرينوس ، موجز التاريخ ، ص ص ٢٦١ — ٢٦٢ . باليونانية . راجع كذلك
Theophanes Continuatus, p. 366.

يقع إلى شمالها والذى امتد على طول الشمال فأكسبها حصانة طبيعية من هذه الجهة (١) . رغم كل هذه الميزات ، الا أنها لم تكن فى وقت ما من تاريخها تعادل القسطنطينية فى الأهمية والمكانة ، وقد أجمع كثير من المؤرخين المحدثين على أنه لم تكن هناك مدينة فى الإمبراطورية البيزنطية تعادل القسطنطينية فى ذلك الوقت سوى مدينة سالونيك (٢) .

يضاف لذلك أن مدينة انطاكية الشامية كانت بيد المسلمين آنذاك ، وكانت تدين بالتبعية مع غيرها من بلاد الشام للخلافة العباسية فى عهد الخليفة المكتفى بالله (٢٨٨ — ٢٩٥ هـ / ٩٠١ — ٩٠٨ م) (٣) ولم تخرج انطاكية من يد المسلمين إلا فى ٢٨ أكتوبر ٩٦٩م (١٤ ذى الحجة ٣٥٨ هـ) حين فتحها القائدين البيزنطيين بطرس فوقاس وميخائيل بورتزيس فى عهد الامبراطور البيزنطى نقفور فوقاس (٩٦٣ — ٩٦٩ م) (٤) .

لذلك كله يمكن القول أن المؤرخين المسلمين قد التبس عليهم الامر . فذكروا أن هذه الغارة وقعت على مدينة انطاكية ، فى حين أن واقع تفسيرات النص الذى ذكروه تؤكد أن الغارة وقعت على مدينة سالونيك .

---

(١) ابن حوقل : صورة الأرض ، القسم الأول ، ص ص ١٧٩ — ١٨٠ .
وقد وصفها القلقشندى بقوله : « وهى مدينة عظيمة غربى حلب بشمال يسير على مرحلتين وهى مدينة قديمة على ساحل بحر الروم ، ولها سور عظيم من صخر ليس له نظير فى الدنيا وكان عدد شرفات هذا السور اربع وعشرون الفا ، وعدد ابراجه مائة وستة وثلاثون برجا . انظر القلقشندى : صبح الاعشى ، ج٤ ، ص ١٢٩ . راجع كذلك :

Cahen, La Syrie du Nord à l'epouque de Croissades, pp. 127—130.

(2) Schlumberger, Recit de Byzance et des Croissades, p. 16; Ostrogorsky, op. cit, p. 228: Bloy Byzance, p. 21.

(٣) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج١٢ ، ص ١٢ .

(٤) كيدرينوس ، موجز التاريخ ، ص ص ٣٦٦ — ٣٦٧ . باليونانية .

ولما كان النقل هو العادة المتبعة عند المؤرخين المسلمين فى تلك الحقبة من الزمن فلا يستبعد أن يكون قد تناقلها الخلف عن السلف دون روية أو تمحيص .

على أية حال ، فى يوليو عام ٩٠٤ م (شعبان ٢٩١ هـ) عقد المسلمون العزم على انزال ضربة قاصمة بالامبراطورية البيزنطية انتقاما للهزائم التى انزلتها بحريتها بأسطول كريت (١) . فاجتمعت بعض القطع الحربية من اسطول مصر (٢) ، واساطيل الموانىء البحرية فى الشام وهى صور وصيدا وطرابلس وطرسوس ، واسندت القيادة العامة لهذا الاسطول إلى ليون الطرابلسى قائد أساطيل الشام وقتذاك . وخرج هذا الاسطول من ميناء طرسوس إلى كريت حيث انضم اليه اسطولها ، وا صبح عدد القطع البحرية فى هذا الاسطول الاسلامى المشترك ، اربع وخمسون قطعة . ومن كريت اتخذ المسلمون طريقهم إلى البلاد البيزنطية ، وكان فى نيتهم التوجه إلى القسطنطينية ذاتها لمحاصرتها (٣) .

وعندما وصلت انباء هذه الحملة إلى الامبراطور البيزنطى الجالس على العرش آنذاك وهو ليو السادس المعروف بليو الحكيم (٤) أرسل الأسطول الأمبراطورى بقيادة الدرنجار ايستاثيوس Eustathius لملاقاتهم واعاقتهم عن الوصول إلى العاصمة البيزنطية . لكن هذا القائد لم يجرؤ على

---

(١) انظر نفس هذا الفصل من البحث ، ص ص ١٧٩ – ١٨٤ .

(٢) كانت مصر وقتذاك تدين بالتبعية للاسرة الطولونية ، وكان يحكمها الأمير هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون (٢٨٨ – ٢٩٢ هـ / ديسمبر ٩٠٠ – نوفمبر ٩٠٥) انظر : الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، ١ ص ١٦٦ .

(3) Brehier, Vie et mort de Byzance p. 150; Finlay History of Greece vol 11, p. 267; Schlumberger, Recit de Byzance et des Croissades, p, 16.

(٤) كان ليو قد تولى العرش البيزنطى بعد وفاة والده باسيل الأول فى ٨٨٦ واستمر فى الحكم حتى ٩١٢ .

سالونيك
البوسفور
البحر الأبيض المتوسط
طرسوس
طرابلس
الاسكندرية
الحملة الاسلامية على سالونيك ٤ ٩م

خريطة رقم (٤)

التعرض لهم ، فتوارى بأسطوله فى مضيق الهللسبونت وأخذ يراقب تحركات الأسطول الإسلامى، بينما تقدم ليون الطرابلسى ونزل على مدينة ابيدوس(١) فهاجمها ثم تركها وعبر الهللسبونت ودخل فى مياه البروبونتيز وفرض الحصار على مدينة باريوم Parium (٢) . وهكذا أصبح الطريق مفتوحا أمامه لحصار القسطنطينية ولكن يبدو أن ليون أدرك صعوبة الأستيلاء عـــلى العاصمة البيزنطية التى تمتعت بموقع استراتيجى ممتاز(٣)، وكان لابد لمحاصرها أن يكون متفوقا فى البر والبحر معا، وهذا مالم يتهيأ لليون الطرابلسى، الذى لم يرغب فى اضاعة للوقت هباء فأنسحب من أمام باريوم وخرج من الهللسبونت واتجه إلى شبه جزيرة خلقيديه Chalcidice فدار حولها واتخذ طريقه إلى سالونيك. وعندئذ عاد ايستاثيوس وأخبر الأمبراطور ليو السادس بعزم المسلمين على مهاجمة سالونيك ،فأرسل الأمبراطور بالأسطول البيزنطى وأسند قيادته هذه المرة إلى السكرتير الأمبراطورى الأول هيميريوس Himerius وذلك لمنازلة المسلمين ومنعهم من التقدم نحو سالونيك ، غير أن هيمريوس لم يستطع اللحاق بأسطول المسلمين ، فعاد من حيث أتى (٤) .

ومادمنا نتحدث عن الهجوم الإسلامى الكبير على مدينة سالونيك البيزنطية يحسن أن نمهد لذلك بكلمة عن أهمية سالونيك ، الأمر الذى جعلها هدفا لهذا الهجوم دون غيرها من المدن والموانى البيزنطية . فقد كانت سالونيك فى ذلك الوقت أهم قاعدة للأسطول البيزنطى فى البحر الإيجى ، ومرفأ لأصلاح سفن

---

(١) فيما يتعلق بأهمية ابيدوس انظر الفصل الأول من البحث ص ٨٢ حاشية رقم (١) .

(2) Monachus, op. cit., p. 862.

(٣) بشأن موقع القسطنطينية وأهميته انظر الفصل الأول من هذا البحث ، ص ٨٠ حاشية رقم (٤)

(4) Monachus. op. cit., pp. 862—863.

الأسطول التى يصيبها التلف (١) ، وهذه المدينة هى عاصمة أقليم مقدونيا ، وتقع عند رأس حوض داخلى ينهى الخليج الطويل الممتد إلى الشمال بين القمم الثلجية الوعرة لجبال أوليمبس Olympus ، وأوسا Ossa إلى الغرب ، والسواحل الغنية لشبه جزيرتى خلقيديه وكاساندرا إلى الشرق (٢) . ثم أنها تقع عند ملتقى طرق عديدة ، أهمها طريق أجناتيا Via Ignatia الذى يخترق قلب المدينة من غربها إلى شرقيها ، وهو الطريق الذى كان يربط بين روما عاصمة الإمبراطورية الرومانيه القديمة ، وبين القسطنطينية وبلاد الشرق وكان تأسيسها فى عام ٣١٥ ق . م . ومؤسسها هو الملك كاسندر Cassandre ملك مقدونيا ، واتخذت اسمها نسبة إلى سالونيكه Thessalonikė ابنة الملك فيليب المقدونى وشقيقه الأسكندر الأكبر (٤) . وكانت مدينة عظيمة منذ الأيام الأولى للأمبراطورية ، وقد ظلت مطرده الأخذ بأسباب الأتساع والنمو ، حتى أصبحت فى القرن التاسع الميلادى ثما بيزنطيا منفردا (٥) . وتمتعت خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين بسلام طويل ، أفادها فى تنمية مواردها الأقتصادية حتى أصبحت وأحدة من أغنى المخازن التجارية فى العالم الوسيط ، فكان كهرمان البلطيق وفراء اوروبا الوسطى ومعادنها تجد

---

(١) هارتان : الدولة والامبراطورية ، ص ١٠ .
العريني : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢١١ .

(2) Finlay, History of Greece vol 11, p. 266.

(3) Dictionnaire de Theologie Catholique, Tome 15, p. 574,; Finlay op. cit., p. 267.

(4) Porphyrogenetus:De Thematibus, p. 50.
انظر كذلك المرجعين التاليين :
Dictionnaire de Theologie Catholique Tome 15, p. 573; Tafrali, Thessalonique au Qruatorzième Siecle p. 1.

(5) Porphyrogénetus : De Thematibus p. 51.

طريقها إلى سالونيك فتنشرها السفن البيزنطية فى كل مكان، وعند ختام القرن التاسع الميلادى أصبحت كتلة التجارية البلغارية كلها تسير عن طريقها . وفى السوق السنوى العظيم ، وهو سوق القديس ديمتريوس كانت المدينة تغص بالزحام لمدة أسبوع بمن يتوافد عليها من التجار من كل ارجاء العالم(١) وإلى جانب ذلك فقد ازدهرت بها الحركة الثقافية والفنية بدرجة تقترب من مثيلتها فى القسطنطينية كما تبوأت مكانه دينية مرموقة نظرا لاحتوائها على جسد القديس ديمتريوس صانع المعجزات . ولهذا كله فقد اصبحت سالونيك المدينة الثانية فى الإمبراطورية بعد عاصمة قسطنطين . وأن كان قد قيل بأنها تعادلها فى المركز والمكانة (٣) .

والمعروف أن الأزدهار الإقتصادى يساعد على توجيه العناية إلى وسائل الدفاع مثل الجيش والأسطول . ولكن الذى حدث فى سالونيك كان على العكس من ذلك ، فقد أدى ثراء المدينة ، وازهار الحركة الفنية والفكرية بها فضلا عن السلام الطويل الذى عاشته فى القرنين السابقين إلى تعود الأهالى على حياة الترف والدعه وفقدانهم لصفات المحاربين ، ومن ثمة فقد أهملوا وسائل الدفاع عن مدينتهم ، التى كانت فى حاجة إلى الترميم والأصلاح ، كما كانت اجزاء منها منخفضة إلى درجة كبيرة . بحيث كان من السهل الوثوب إلى أعلاها إذا ماأعتلى الفرد ظهر سفينة راسيه بالميناء . أما الأبراج فوق الأسوار فكان معظمها فى حالة تسوس كما كان من العسير الأتصال بين بعضها والبعض الآخر ، وكانت الحامية

---

(١) رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ١٩٩ ، ص ٢٤٦ .

(2) Diehl, in the preface of Tafrali's book Thessalonique p. 6.; Brehier, Vie et Mort de Byzance, p. 150; Ostrogorsky. Byzantine State, p. 228.

(٣) انظر نفس هذا الفصل ، ص ص١٨٥-١٨٦

مهمله ، ولم تكن هناك فى الغالب قوات نظامية للدفاع عن الأسوار . وحين علم الأمبراطور ليو بما عليه المدينه من أهمال فى وسائل دفاعها ، قام باجراءات سريعة لتحصينها ، غير أنه زاد باجراءاته تلك الفوضى والارتباك المتفشى فيها ، فقد أخذ فى إرسال قوات متتالية من القسطنطينية إلى سالونيك ، وكل دفعه من هذه القوات برئاسة قائد معين ، وزود كل قائد بتعليمات جديدة ، وقد أخذ كل قائد منهم فى تغيير خطة الدفاع التى اتخذها سلفة . وكان أول قائد ارسلة الأمبراطور إلى سالونيك ، يدعى بترونا Petronas وقد رأى أن الوقت لايتسع لترميم الأسوار ، فأمر بالقاء كتلات ضخمه من الأحجار والرخام على مسافة من رصيف الميناء لتعوق تقدم سفن المسلمين ، وتبيح للقوات المدافعة عن المدينة أن تصليهم بالنار الإغريقية . غير أن ضابطا آخر يدعى ليون ، أرسله الأمبراطور إلى سالونيك بعد أن عينه حاكما لها ، رأى عدم جدوى مشروع بترونا ؛ فأمر بتعطيل العمل فيه ، كما أمر بترميم الأسوار وتقويتها فشرعوا فى تنفيذ اقتراحه وقبل أن ينتهى العمل فى مشروع ليون ، أرسل الأمبراطور قائدا جديد يدعى نقيتاس Matmos الذى شكل قدومه فى حد ذاته ، اضطرابا وفوضى زائدين . وقد تطورت الأحداث بشكل أدى إلى جعل نقيتاس هو المسئول عن الدفاع فى المدينة ، فأثناء مروره مع ليون لتفقد الأسوار ، كبى فرس الأخير والقى براكبه بعيدا ، فأصيب اصابة بالغة ، وهكذا انسحب من الميدان ليخلو الأمر لنقيتاس وحده ، الذى اهمل مشروع سلفه وأخذ فى تكوين جيش من أهالى سالونيك . والواقع أن الروح المعنوية للسكان كانت متدهوره للغاية فانهم لم يتحمسوا كثيرا للدفاع عن مدينتهم ، وانما وضعوا كل ثقتهم فى القديس ديمتريوس الذى اعتقدوا اعتقادا راسخا بأنه سيتولى الدفاع عنهم وحمايتهم ضد أى هجوم يتعرضون له . وحين أدرك نقيتاس ذلك ، أرسل إلى قائد

ثيم ستريمون Strymon (١) ، يطلب منه امداده بجيش من الصقالبه المدربين على الحرب والمتحالفين مع حكومته . غير أن أهمال قائد ستريمون لهـذا الطلب ، وسوء نية الزعماء الصقالبة من جهة أخرى ، حالا دون وصول أية مساعدة عسكرية إلى سالونيك ، فأضطر نقيتاس إلى جمع اعداد ضئيلة مـن المحاربين الصقالبة من القرى المجاورة لسالونيك (٢) . وهكذا عندما أخـذ المسلمون فى الأقتراب من المدينة ، لم يكن هناك أى تقدم فى وسائل دفاعها وفى يوم الأحد ٢٩ يوليو ٩٠٤ م (ذى القعدة ٢٩١ هـ) وصل المسلمون إلى خليج سالونيك ، فساد الذعر بين الأهالى ، وعلت أصواتهم بالنحيب والبكاء ، وهرع أغلبهم إلى الكنائس يلتمسون النصر والحماية من القديس ديمتريوس (٣) .

وعلى الفور قام ليون الطرابلسى باستطلاع التحصينات ، واختبار مشروع بترونـاس الذى لم يستكمل ، وقد مكن عدم استكمال هذا المشروع المسلمين من الأقتراب من الأسوار ، خصوصا وأن عمق المياه فى بعض الإماكن فى الميناء كان مايسر لهم ذلك . وبعد العمليات الأستطلاعية ، قام المسلمون بهجمات متقطعة كانت أشبه ماتكون بالمناوشات بقصد جس النبض وكشف مدى قوة الدفاع عن المدينة وخطط المدافعين بداخلها . وفى اليوم التالى ٣٠ يوليو ٩٠٤ (ذى القعدة ٢٩١ هـ) قام المسلمون بهجوم عنيف على الأسوار وتحت غطاء من قذائف المنجنيقات والسهام تمكنت اعداد منهم من النزول على الشاطىء وهاجموا بوابة روما — وهى احدى البوابات الموجودة بالسور

---

(١) يقع ثيم ستريمون على ساحل مقدونيا إلى الشمال من شبه جزيرة خلقيدية .
انظر ، أطلس دائرة المعارف البريطانية ، ص ٦ .

(٢) كامينياتى ، قهر سالونيك ، صص ٤٨٧ — ٤٩١ ، صص ٥١ — ٥٢٤ . باليونانية .

(٣) كامينياتى ، قهر سالونيك ، صص ٤٩٢ — ٤٩٥ . باليونانية .

الشرقى للمدينة ، كما قاموا بمحاولة لتثبيت سلالم للتسلق إلى أعلى السور ، ولكن المدافعين احبطو هذه المحاولة وفى مساء نفس اليوم قام المسلمون بمحاولة جديدة ، فملأوا بعض قوارب الصيد الصغيرة بالحطب والقار والكبريت ، ونقلوها إلى السور الشرقى واشعلوب فيها النيران وانسحبوا ، وقد التهمت النيران بوابتى روما وكاسندرا ، ولكن حين سقطت البوابتان ظهر أن خلفهما بوابتان من الحجارة الشديدة الأحكام (١) . وأثناء الليل ساد الهدوء ميدان القتال ، وقضى المسلمون ليلتهم فى الاستعداد للهجوم الكبير الذى عزموا على القيام به . وفى اليوم التالى أى فى صباح ٣١ يوليه ٩٠٤ م بدأ القتال ، فامطر المسلمون المدافعين عن المدينة بوابل من السهام والحراب ، وقذائف النيران وزجاجات المواد الحارقة ، فأصبح الموقف لا يحتمله المدافعون عن الأسوار ، فأخذوا فى الأنسحاب والتقهقر ، وعندئذ أندفع البحارة الأثيوبيون الذين ينتمون إلى الأسطول المصرى وشرعوا فى اعتلاء الأسوار ونزلوا إلى المدينة وفتحوا بواباتها واقتحم المسلمون سالونيك حيث قامت معركة كبيرة بينهم وبين القوات المدافعة عنها كان مسرحها الأزقة الضيقة للميناء ، وأحرز المسلمون أنتصارا باهرا خلال هذه المعركة ، وبذلك قضوا على إخر محاولة للمقاومة داخل سالونيك (٢) .

ويفيض المؤرخ كامينياتى فى وصف الذعر والأضطراب الذى ساد انحاء المدينة حين علم الأهالى بدخول المسلمون (٣) الذين استباحوها ، وخلصوا أسراهم بها وكان عددهم كما يذكر الطبرى ، أربعة الاف أسير (٤) ، وان

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٥٢٩ .

(2) Ibid, pp. 552—560.

(3) Ibid, pp. 565—584.

(٤) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ١١ ، ص ٥ .

كان ابن الاثير قد ذكر انهم خمسة الاف اسير (١) وحصلوا على غنائم هائلة وثروات عظيمة ، وفى ذلك يقوم أحد المورخين المسلمين وهو الحافظ شمس الدين « وأتوا بالغنائم لم يعهد مثلها حتى بلغ سهم الجندى الف دينار» وقد اتفق معه فى ذلك كثير من المؤرخين امثال الطبرى وابن تغرى بردى ووجد ليون الطرابلسى ستون مركبا تجاريا بيزنطيا راسية بميناء سالونيك ، وكانت هذه المراكب مشحونة بالذهب والفضة والمتاع والآنيه فأستولى على المراكب وعلى كل مافيها ويقول ابن خلدون فى هذا الصدد « وغنم ستين من مراكب الروم بما فيها من المال والمتاع والرقيق»(٤) . وبلغ عدد الأسرى والسبايا الذين اخذهم المسلمون من سالونيك ٢٢ ألف نسمه ، وهم يشكلون عشر سكان المدينة كما يذكر كامينياتى (٥) الذى كان ضمن هؤلاء الأسرى وقد يكون فى هذا التقدير نوع من المبالغة ، إلا انه يدل على كثرة عدد الأسرى أما المؤرخون المسلمون فقد قدروا عدد الأسرى بخمسة آلاف (٦) ، وربما كان ذلك أقرب إلى الحقيقة .

على أن المسلمين لم يستقروا طويلا بسالونيك ، اذ مكثوا بها لمدة عشر أيام فقط ، والظاهر انهم لم يهدفوا من وراء غزوتهم هذه إلى فتح سالونيك واستقطاعها من الدولة البيزنطية وادخالها فى دائرة النفوذ الإسلامى ، ولكن

---

(١) ابن الا ثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ١٧٤ .
(٢) الحافظ شمس الدين ، دول الاسلام ، جـ١ ، ص ١٣٨ .
(٣) ابن تغرى بردى : فى النجوم الزاهرة ، خـ٣ ، جـ٣ ، ص ١٣٢ ، الطبرى : تاريخ الا م والملوك ، جـ١١ ، ص ٥ .
(٤) ابن خلدون : العبر ، جـ٣ ، ص ٣٥٧ ، انظر كذلك : الطبرى : نفس المصدر ، جـ١١ ، ص٥ ، ابن الا ثير : الكامل جـ٧ ، ص ١٧٤ .
(٥) كامينياتى ، قهر سالونيك ، ص ٥٨٩ ، باليونانية
(٦) الطبرى : تاريخ الا م والملوك ، جـ١١ ، ص ٥ ، ابن خلدون ، العبر ، ص ٣ ، ص ٣ جـ٣٥٧ ، ابن الا ثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ١٧٤ .

كان الغرض من الهجوم على هذه المدينة هو القيام بغارة انتقامية سريعة ضد أحد القواعد الرئيسية للبحرية البيزنطية ردا على الهزائم التى الحقها الأسطول البيزنطى بمسلمى كريت فى السنوات الأولى من عهد الأسرة المقدونية وكذلك الحصول على الغنائم من هذه المدينة الشهيرة بثرائها . فضلا عن رغبة المسلمين فى العودة السريعة إلى قواعدهم قبل أن يفيق أولو الادمر فى بيزنطه من أثر هذه المفاجأة القاسية ، ويشرعوا فى القيام بعمل عسكرى يكون من نتيجته حصار المسلمين فى سالونيك والقضاء عليهم .

ومما يدعو إلى الدهشة أن الإمبراطور البيزنطى ليو السادس لم يقم بأية محاولة لأسترداد سالونيك من يد المسلمين طوال العشرة أيام التى قضوها بها وبعد أن حصل المسلمون على الغنائم والأسرى ، حان موعد رحيلهم ، وعندئذ أرسل الإمبراطور ليو بعض قطع الأسطول الإمبراطورى لمطاردتهم ، ولما كان القتال متعذرا بالنسبة للمسلمين نظر لأزدحام سفنهم بالأسرى والغنائم ، فقد رأوا أنه من الأفضل مراوغة الأسطول البيزنطى ، فتوقفوا ستة أيام عند جزيرة باتموس Patmos — احدى جزر البحر الإيجى — ويومين عند جزيرة ناكسوس Naxos — احدى جزر السيكلاديز — وكانتا تدينان بالتبعة لجزيرة كريت فى ذلك الوقت (١) ، ثم رسا المسلمون بالقرب من جزيرة ديا Dia — إلى الشمال من مدينة الخندق — واحتموا بها لمدة ثلاثة أيام ، وبعد ذلك واصلوا سيرهم حتى بلغوا جزيرة كريت (٢) .

(١) لم تأت المصادر بشىء عن تفاصيل استيلاء مسلمى كريت على هاتين الجزيرتين ، أو عن التاريخ الذى خضعتا فيه لكريت ، والظاهر أن ذلك تم اثناء الغارات العديدة التى كانوا يقومون خلالها بالهجوم على جزر البحر الإيجى وجزر السيكلاديز .

(٢) كامينياتى ، قهر سالونيك ، ص ص ٥٨٣ — ٥٨٤ باليونانية .

ويصف المؤرخ البيزنطى كامينياتى استقبال الأهالى بمدينة الخندق للمنتصرين المسلمين فيقول انهم خرجوا جميعاً لاستقبالهم فرحين مهللين معلنين عن فرحتهم بدق الطبول والنفخ فى الأبواق ، وأخذت النساء تطلقن الزغاريد ، كما أخذ الاطفال يرددون الأهازيج . وبعد أن احتفل الجميع بانتصارهم وعودتهم سالمين ، أخذ ليون الطرابلسى ورجال الأسطول يوزعون الغنائم والأسرى على الأطراف التى اشتركت فى هذه الغزوة حتى يستطيع كل أسطول أن يعود إلى قاعدته قبل انتهاء فصل الصيف ومن كريت خرج الأسطول المصرى إلى الأسكندرية مباشرة ، كما خرج الأسطول الشامى إلى قواعده فى صيدا وصور وطرابلس وطرسوس (١) .

وهكذا استطاع المسلمون عن طريق تعاونهم فى عمل عسكرى مشترك أن ينزلوا بالدولة البيزنطية هذه الضربة العنيفة التى اعتبرها عدد كبير من المؤرخين الغربيين وبصفة خاصة المؤرخين الفرنسيين شلومبرجيه Schlumberger ، وبرييه Brehier وبلوى Bloy ، من أكبر المآسى التى تعرضت لها الدولة البيزنطية خلال تاريخها الطويل (٢) .ولاشك أن هذه الرأى على جانب كبير من الصواب ، خاصة لما ترتب على تلك الغارة من نتائج تتعلق ببيزنطة ، وهى لم تقتصر فقط على علاقتها بكريت ، وإنما تعدتها إلى علاقاتها مع جيرانها الآخرين ، إذ أدت إلى الحط من هيبتها فى نظر اعدائها ، وأخذ كل منهم يحاول أن ينال منها قدرا ستطاعته ، وأن يحصل على مايبغيه من مكاسب على حسابها ، مثال ذلك سيميون ملك بلغاريا الذى كان فى صراع دائم مع الدولة البيزنطية ، فقد رأى بعد أن انسحب المسلمون من سالونيك أن

---

(1) Ibid, pp. 585—599.

(2) Schlumberger, Un Empereur Byzantin, p, 35; Brehier, Vie et mort de Byzance, p. 150; Bloy, Byzance, p. 20.

يستقطعها ويضمها إلى ممتلكاته ، وشرع فى تنفيذ هذا المشروع ، ولما وجد الأمبراطور ليو السادس أنه لن يستطيع الوقوف فى وجهه والحيلولة بينه وبين تنفيذ غرضه ، تنازل له عن أجزاء من الممتلكات البيزنطية ، مقابل تخليه عن أطماعه فى سالونيك ، وتم بينهما اتفاق فى عام ٩٠٤ م (٢٩١ هـ) استحوذ سيميون بمقتضاه على كل الأراضى الصقلبية الواقعة إلى الجنوب من مقدونيا والبانيا الحالية ، وبذلك نجح سيميون فى توحيد كل القبائل الصقلبية بالبلقان تحت لوائه (١) .

وقد أستغل الروس أيضا هذه الكارثة التى حلت ببيزنطه على يد المسلمين وقدم ملكهم اوليج Oleg فى عام ٩٠٧ م (٢٩٤ — ١٩٥ هـ) بأسطول كبير وفرض الحصار على القسطنطينية ذاتها ، وأخذ فى تخريب المناطق المحيطه بها واضطر الإمبراطور البيزنطى ليو السادس إلى مقابلته وتم عقد معاهدةبينهما حصل اوليج بمقتضاها على إمتيازات تجارية هامه ، وقد جددت هذه المعاهدة فى عام ٩١١ م (٢٩٨ — ٢٩٩ هـ) .

كذلك فقد انعكست آثار هذه الغارة على العلاقات بين بيزنطه وكريت لفترة طويلة من الزمن ، ففى أكتوبر عام ٩٠٨ م (المحرم ٢٩٦ هـ) ، أرسلت الدولة البيزنطية اسطولا بقيادة هيمبريوس ، اشتبك مع أسطول كريت فى معركة فى البحر الإيجى — ولم تأت المصادر بشىء عن تفاصيلها — ويقال أن البيزنطيين انتصروا على الأسطول الكريتى خلالها (٣) .

---

(1) Brehier. op. cit., p. 150; Ostrogorsky, History of the Byzantin State, p. 228.

(2) Brehier, op cit., pp. 150—151.

انظر كذلك العريني : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣٣٤ .

(3) Ostrogorsky, op. cit., p. 229; Vasiliev, op. cit., p. 404.

وقد رأت الدولة البيزنطية بعد الخسائر التى لحقت بها من جراء التعاون بين أسطولى كريت والشام ، أن تحول دون اتصالهما فى المستقبل ، ولتحقيق ذلك ، قررت الأستيلاء على جزيرة قبرص واخراجها من يد المسلمين ، وكان موقع الجزيرة مما يتيح لبيزنطه تحقيق غرضها ، اذ أنها تقع فى الزاوية الشمالية الشرقية من البحر المتوسط ، ويقترب طرفها الشرقى من خليج الأسكندرية ، مما جعلها سهما مصوبا إلى السواحل الشامية (١) . وقد أرسلت بيزنطه فى عام ٩١٠ م (٢٩٧ هـ) أسطولا بقيادة هيميريوس لغزو قبرص واعادتها لسلطانها من جديد (٢) ، وهاجم هيميريوس الساحل الشرقى للجزيرة ، لكنه لم ينجح إلا فى تأسيس بعض القواعد البيزنطية على هذا الساحل ومنها أتجه فى نفس العام إلى مدينة اللاذقية على الساحل الشامى ، فهاجمها واحتل بعض الحصون بها وأستولى على أعداد كبيرة من الاسرى المسلمين (٣) .

وكان رد الأسطول الشامى على هذه الغارة حاسما ، اذ قام هذا الأسطول بقيادة داميان Damianus (٤) ، بالإغارة على القواعد البيزنطية التى أسسها هيميريوس على الساحل الشرقى لقبرص ، وخربها واعادها لسلطان المسلمين

---

(١) سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، ص ص ٣ — ٤ .

(٢) يرجع الفضل فى سرد اخبار هذه الحملة وماترتب عليها من نتائج إلى البطريك نيقولا مستيكوس Nicola Mysticus ، الذى اشار اليها فى ثنايا خطابه إلى امير كريت فى عام ٩١٥م انظر ص ٢١٠—٢١١ .

(3) Nicolai Constantinophlitani Archiepiscopi Epistolae, in patrologiae cursus completus, Tomus unicus, p. 34.

(٤) داميان هو احد اليونانيين المرتدين عن الدين المسيحى ، اعتنق الاسلام وعرف بنشاطه الكبير فى الجهاد ضد البيزنطيين ، وكان يتولى امارة الثغور إلى جانب رئاسة الأسطول الإسلامى فى الشام . انظر ، ابن الاثير : الكامل ، جـ٦ ، ص ١٤٤ .

كما انزل العقاب بالقرى المسيحية التى أمدت هيمبريوس بالمساعدة وخضعت له ، ثم عاد إلى قاعدته فى طرسوس محملا بالغنائم والأسرى (١)

وهكذا فشلت بيزنطه فى تحقيق غرضها ، والعمل على قطع الأتصال بين أسطولى كريت والشام ، فقد كانت البحرية الإسلامية فى شرقى البحر المتوسط على درجة كبيرة من القوة ، ولم يكن من اليسير القضاء عليها ، بعد أن أرتفع شأنها منذ أوائل القرن العاشر الميلادى ، وأصبحت أكثر رسوخا واستقرارا. فى الوقت الذى أصاب التدهور والأضمحلال البحرية البيزنطيه فى عهد الأمبراطور ليو السادس ، بعد الأنتعاش الذى شملها فى عصر سلفه باسيل الأول (٣) . ذلك أن الأمبراطور ليو لم يوجه اهتماما كبيرا لشئون السياسة والحرب فى دولته ، بل انصرف للأشتغال بأمور اللاهوت والفلسفه والقانون وغيرها من العلوم حتى أطلق عليه المعاصرون أسم ليو الحكيم أو الفيلسوف Leo Philosophi ، هذا إلى جانب انشغاله بالمشاكل الداخلية التى قامت بسبب زيجاته المتعدده ، وهو الأمر الذى يخالف تعاليم الكنيسة الشرقية ، مما ترتب عليه نشر بذور الخلاف بين هذا الإمبراطور والكنيسة والبلاط والشعب كله (٤) . ويقول المؤرخ الروسى أوستروجورسكى أنه من الأمور التى تؤخذ على الإمبراطور ليو السادس أنه لم يوجه اهتماما كبيرا للسياسة الخارجية لدولته ، مما ترتب عليه الأضرار بالإمبراطورية البيزنطية فى عهده ضررا بالغا (٥) .

---

(1) Nicolai Constantinopolitani Archiepiscopi Epistolae pp. 31—35.

(٢) لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ص‌ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .

(٣) لويس : نفس المرجع ، ص ٢٢٦ .

(4) Ostrogorsky, op. cit., p. 231, C.M.H. vol IV, p. 57.

(5) Ostrogorsky, op. cit., p. 215, 226.

ورغم اهمال الإمبراطور ليو السادس للشئون العسكرية فى دولته ، وتشاغله عنها بأمور أخرى ، إلا أن الضربة العنيفة التى تلقتها الدولة البيزنطية فى سالونيك ، والفشل الذريع الذى أسفرت عنه محاولاتها لمنع الأتصال بين الأساطيل الإسلامية فى شرقى البحر المتوسط وأسطول كريت ، اضطره إلى توجيه المزيد من العناية والأهتمام للقوة العسكرية التى هى السبيل الوحيد لإحراز النصر على الأعداء . فأخذ فى الإعداد لحمله ضخمة بقصد استرداد كريت وادخالها فى دائرة النفوذ البيزنطى من جديد ، ولم يبخل فى الأنفاق عليها ، ويمكن ملاحظة ذلك بأستعراض التفاصيل الخاصة بها ، تلك التفاصيل التى أنفرد بعرضها الإمبراطور قسطنطين السابع دون المؤرخين جميعا من معاصرين ومتأخرين ، بيزنطيين كانوا أو مسلمين ، وذلك فى كتابه «المراسم الإمبراطورية»(١) . وجدير بالذكر أن كثير من المؤرخين المحدثين ، وعلى رأسهم كبار المشتغلين بتاريخ العصور الوسطى أمثال فازيلييف ، وبرييه واوسترجورسكى ، وفنلاى ، وديل ، ومارسيه وغيرهم ، لم يعرضوا لتفاصيل هذه الحملة الكبيرة . وانما أشاروا اليها بصفة عامه فى عبارات شديدة الإيجاز (٢) ، لذا كان اعتمادنا أساسا على مؤلف قسطنطين السابع فى استجلاء الغموض الذى يحيط بالحملة المذكورة وأهميتها فى تاريخ العلاقات بين كريت الإسلامية والدولة البيزانطية .

---

(١) انظر تفاصيل هذه الحملة فى كتاب « المراسم الامبراطورية » وهو باليونانية ، ص‌ص ٦٥١ — ٦٦٠ .

(2) Vasiliev, Histoire de l'empire Byzantin, p. 404; Ostrogorsky, History of the Byzantine State, p. 229; Brehier, Vie et mort de Byzance, p. 152, Finlay, History of Greece, vol 11, p. 278; Diehl Histoire de l'empire Byzantin, p. 98; Diehl et Marcais, le monde orientale, p. 451.

ولقد أسندت قيادة الأسطول فى هذه الحملة إلى البطريق واللغيثيث هيميريوس . وبلغ عدد البحارة فى الأسطول الإمبراطورى وأساطيل الولايات البحرية البيزنطية التى اشتركت فى الحملة ٣٣٧ و ٣٣ بحارا ، كما ضمت اعدادا كبيرة من السفن الحربيةالبيزنطية بلغ عددها أكثر من٢٤٥قطعةمابين كبيرة وصغيرة . وكانت هذه الأعداد من السفن والبحارة موزعه على النحو التالى :

أولا : الأسطول الإمبراطورى : تكون هذا الأسطول من ٦٠ دروموته وبلغ بعضها من الضخامة أنه كان للسفينة الواحده من ٢٠٠ — ٢٣٠ مجداف وبلغت حمولة الواحدة منها ٧٠ مقاتلا . إلى جانب ٤٠ بامفيليه تحمل كل منها من ١٣٠ إلى ١٦٠ مقاتلا ، و٧٠ زورقا حربيا « روسوس » . وبلغ عدد البحارة فى هذا الأسطول ١٢ ألف بحار بيزنطى ، ٧٠٠ بحارا من الروس، ٥٠٣٧ بحارا من المرده (١) .

ثانيا : أساطيل الولايات البحرية البيزنطية : وقد اشترك ثيم كبير هايوت فى هذه الحملة بأسطول كبير مكون من ١٥ دروموته ، ١٦ بامفيليه ، وكان يضم ٦٦٠٠ بحارا . وتألف أسطول ثيم ساموس من عدد غير محدد من الدرومونات ، بالاضافة إلى ٢٠ بامفيليه ، ٥٠٠٠ بحارا . أما اسطول ثيم البحر الإيجى فقد أشتمل على ٧ درومونات ، ٧ بامفيليات ، ٤٠٠٠ بحارا كما تكون ثيم الهيلاس من ١٠ درومونات ، ولم يذكر الإمبراطور قسطنطين السابع عدد البحارة العاملين فى هذا الأسطول .

وقد اسندت قيادة الجيش فى هذا الحملة إلى القائد البيزنطى رومانوس

---

(١) بشأن التعريف بالمرده ، انظر نفس هذا الفصل من البحث ، ص ١٦٨ حاشيةرقم(٦)

ليكابينوس (١) وتكون هذا الجيش من الفرسان والمشاه ، أما الفرسان فقد بلغ عددهم ٠٣٧ و ٦ فارسا جمعوا من ثيمات مقدونيا والتراقيسيون وارمينيا . وبلغ عدد المشاه ١٢٩ و ٣١ رجلا ، من بينهم ٥٠٢ و١٢ من القادة والجنود من الجيش الإمبراطورى ، ٧٦٠ ر ٦ رجل من الكشافة والمقاتلين من ثيم ساموس ، كما أرسل البحر الإيجى ١٠٠ و ٣ من الكشافة والمقاتلين ، إلى جانب ٠٨٧ و ٤ كشافا ومقاتلا من المرده .

هذا ، وقد انفقت مبالغ طائله على أعداد هذه الحملة ، وساق الأمبراطور قسطنطين السابع أمثله من العطاءات الإضافية Rogas التى صرفت للقادة والجنود الذين اشتركوا فى الحملة والتى تحملتها كلها الخزينة الإمبراطورية ، وقد منح البحار الذى ينتمى إلى الأسطول الإمبراطورى ٦٦ نوميسما (٢) ، ١٣ ليره (٣) ، وتقاضى البحار الروسى فى الأسطول الإمبراطورى ٤٣ نوميسما ، ٥٩ ليرة ، على حين تناول كل بحار من العاملين فى أساطيل الولايات ٢٤ نوميسيما ، ٨٣ ليره .

---

(١) هو الذى أصبح امبراطورا مغتصبا للعرش فى الفترة من ٩١٩ – ٩٤٤ م. وهى فترة تصور الامبراطور الشرعى قسطنطين السابع ، انظر التفاصيل ص ص من هذا الفصل .

(٢) النوميسما ، هى عملة ذهبية بيزنطية ، وكانت تساوى واحدا على اثنين وسبعين(١/٧٢ من الرطل من الذهب ، وكانت النوميسما تنقسم إلى ١٢ ميلياريسيا ، التى تنقسم بدورها إلى اثنى عشر فلسا . انظر ، رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٢١٠ .

(٣) الليره ، هى عملة ذهبية استعملت فى الدولة البيزنطية ، وكانت تسك على اساس اثنين وسبعين قطعة من الذهب ، وهى تساوى ٣٢٧ جراما من الذهب ، ويستطرد المؤرخ موريس لومبار فى تعريفه بالليره قائلا « أى أنها هى الصلدى المعروف فى الاصطلاح القسطنطينى بالصلدى الذهبى ، أو الدينار يون الذهبى ، ومنه اشتق المسلمون عملتهم الذهبية أو الدينار» انظر ، لومبار : الاسس النقدية للسيادة الاقتصادية . بحث ترجمة ونشره بالعربية توفيق اسكندر فى كتاب بحوث فى التاريخ الاقتصادى القاهرة ، ١٩٦١ ، ص٥٦ .

أما بالنسبة لعطاءات الفرسان والجنود المشاه المشتركين فى الجيش الإمبراطورى وجيوش الولايات ، فكانت على النحو التالى :

الفرسان : لم يذكر الإمبراطور قسطنطين عطاءات الفرسان بالجيش الإمبراطورى أما الفارس الذى ينتمى إلى ثيم مقدونيا فكان عطاؤه ٤٢٣ نوميسما ، ٤١ ليره . وتقاضى الفارس من ثيم التراقيسيون ٢٤ نوميسما ، ٨٠ ليره ، أما الفارس الأرمينى فقد منح ٤٨ نوميسما ، ٤١ ليره .

المشاه : تقاضى كل قائد بالجيش الإمبراطورى عدد غير محدد من النوميسمات ، ٩٠ ليره ، ومنح الجندى فى هذا الجيش ٣٢ نوميسما ، ٦٩ ليره . وبلغ عطاء الجندى الواحد فى ثيم ساموس ١١ نوميسما وليره واحدة أما الجندى الذى ينتمى إلى ثيم البحر الإيجى فتقاضى ٣ نوميسمات ، ٥٤ ليره وبلغ عطاء الجندى من المرده ٣٢ نوميسما ، ٦٦ ليره .

هذا إلى جانب كميات هائلة من أدوات القتال ، من السيوف ، والحراب والسهام والدروع والخوذ الحديديه والشوك والكلاليب ، والمواد الملتهبه والمنجنيقات وغيرها من الآلات التى استخدمها الجيش والأسطول البيزنطى فى الحرب .

ومن العرض السابق يتضح مدى استعدادات هذه الحملة الكبيرة التى فاقت ماقبلها من حملات ارسلتها بيزنطه ضد كريت . ورغم أن الإمبراطور قسطنطين السابع افاض فى ذكر استعدادات هذه الحملة ، إلا أنه أشار بصورة سريعة إلى الاشتباكات التى حدثت بينها وبين الكريتيين . ولم تمدنا المصادر الأخرى بما يفيد فى هذا المجال . وقد ذكر الإمبراطور قسطنطين أن الحملة ابحرت إلى كريت فى صيف عام ١١٩ م ، لكنه لم يحدد التاريخ الدقيق

لإبحارها ، ووصل هيميريوس امام كريت دون أن يواجه صعوبات تذكر لكنه لم يستطع النزول إلى ارض الجزيرة ، نظر اللمقاومة الشديدة التى قابلها من المسلمين ، ففرض الحصار عليها ، واستمر محاصرالها لمدة ثمانية شهور وقعت خلالها بعض الإشتباكات بين الطرفين كان التفوق فيها للمسلمين . واذ تملك هيميريوس اليأس ، رفع الحصار وانسحب من امام كريت . وفى طريق عودته إلى بيزنطه ، طارده أسطول الشام بقيادة ليون الطرابلسى ، والتقى الطرفان فى معركة كبيرة بالقرب من جزيرة ساموس فى ربيع عام ٩١٢ م (٢٩٩ هـ) ، الحق فيها المسلمون بالبيزنطيين هزيمة ساحقة ودمروا العدد الأكبر من أسطولهم ، واستطاع القائد رومانوس ليكابينوس أن ينقذ البقيةالباقيةمن جيشهبصعوبةبالغة.اماهيميريوسفقد نجح فى الفرار إلى جزيرة ميتلين ، واختفى بها لبعض الوقت ، وحين عاد إلى بيزنطه كان الإمبراطور ليو السادس قد توفى (١٢ مايو ٩١٢ م) وخلفه على العرش شقيقه الإمبراطور الإسكندر Alexandre (١) ؛ الذى أمر بادخال هيميريوس الدير ، ليقضى به بقية حياته عقابا له على هزيمته .

والواقع أن الواقفة الصامدة التى وقفتها كريت فى وجه القوات البيزنطية التى استمرت فى حصارها للجزيرة لمدة ثمانية شهور كامله ، توضح مدى القوة التى كانت تتمتع بها الجزيرة وقتذاك ، وإن كانت المصادر المعاصرة والمتأخرة لم توضح ذلك صراحة إلا أن الباحث بوسعه أن يدرك هذا الأمر أستنادا إلى سير الحوادث التاريخية ، وقد زاد من فعالية هذه القوة مساندة

(١) استمرت فترة حكم الامبراطور الاسكندر عاما واحدا فقط ، من ١٢ مايو ٩١٢ م حتى ٦ يونيه ٩١٣م ، وهوتاريخ وفاته . انظر ،
Theophanes Continuatus, Liber VI, p. 377.

الأسطول الشامى لها . على أن أهم ماأسفرت عنه هزيمة القوات البيزنطية من نتائج ، هو التغيير الذى طرأ على سياسة بيزنطه تجاه كريت . فبعد صراع عنيف استمر بين الطرفين لمدة ثلاثة ارباع القرن ، ولم يسفر عن أية مكاسب جنتها بيزنطه من ورائه ، ادركت الحكومة البيزنطية ، عدم جدوى استخدام القوة ضد كريت ، فلجأت إلى الأساليب السياسية والسلمية ، لعلها تحقق عن طريقها مافشلت القوة العسكرية عن تحقيقه وتنجح فى كف اذى المسلمين بكريت عنها . وكان ذلك هو الطابع المميز للسياسة البيزنطية ، فقد كان يحدث احيانا — كما يذكر المؤرخ رانسيمان — اذا لم تكن بيزنطة راغبة فى خوض غمار الحرب لسبب ما ، أن تلجأ إلى أتباع الديبلوماسية الهادئة ، والسياسة واللين مع الخصم حتى تتحسن ظروفها ، وعندئذ تخوض الحرب (١). وهى نفس السياسة التى اتبعتها مع كريت .

فقد أرسل بطريرك القسطنطينية نيقولا ميستيكوس (٢) — بصفته وصيا على الإمبراطور القاصر قسطنطين السابع — رسالة إلى أمير كريت (٣) فى

(١) رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ١٩٣ .

(٢) يعتبر نيقولا ميستيكوس من اشهر بطاركة الكنيسة الشرقية فى القرن العاشر الميلادى لما امتاز به من قوة الشخصية والنبل والشرف ، وقد تولى بطريركية القسطنطينية فى مستهل القرن العاشر الميلادى اثناء حكم الامبراطور ليو السادس ، ثم قام الخلاف بينهما بسبب رفض البطريرك نيقولا الاعتراف بالزواج الثالث للامبراطور ليو ، فعزله الأخير عن البطريركية فى يناير ٩٠٧ م على انه عاد اليها بعد وفاة هذا الأمبراطور فى مايو ٩١٢ م ، وشارك فى الأحداث السياسية التى مرت بها البلاد آنذاك . انظر ،

Ostrogorsky, History of the Byzantine Empire, p. 231, C.M.H., vol IV, p. 57.

(٣) لم يشر البطريرك نيقولا فى رسالته إلى اسم امير كريت وقتذاك ، ولم تأت المصادر الأخرى من بيزنطيه أو عربية بما يفيد فى هذا الشأن ، ولكن المعروف أن الامير شعيب بن أبى حفص كان معاصرا اللامبراطور باسيل الأول (٨٦٧ — ٨٨٦م) وبناءا على ذلك يكون امير كريت الذى وجه اليه البطريرك نيقولا هذا الخطاب اما الأمير شعيب أو ابنه عبدالله الذى خلفه على حكم الجزيرة .

عام ٩١٥ م (٣٠٢ — ٣٠٣ هـ)تفيض رقة وعذوبة بدأها بقوله: «إلى أمير كريت الأعظم ، المتألق ، المختار ، نهر القوة المتدفق ، الصديق الأول ، المنتمى إلى أفضل الأصول وأقواها . ليس أى رجل بين الرجال فى قوتك ، ولا بأمكان أى انسان فى الوجود أن يتفوق على خلقك (١) ثم أوضح لأمير كريت أن الغرض من مراسلته هو طلب السلام ، وقد عبر البطريرك نيقولا عن ذلك فى عبارات تدل على مدى الأحترام والتقدير الذى يكنه البيزنطيون للمسلمين رغم مابينهمامن عدوات واختلافات دينية ، فقال « أن دولتى المسلمين والروم الشقيقتان مرموقتان ، وهما تمتازان وتتألقان فى قبة السماء الزرقاء ، ولهذا وحده ، لا مفر لنا من أن نعيش معا كأخوه ، رغم اختلافنا فى العادات واللغة والدين (٢) »

ومن المتعذر رسم صورة واضحة للعلاقات بين بيزنطه وكريت فى الفترة التالية لعام ٩١٥ م وحتى عام ٩٤٩ م . إذ لم تأت المصادر بشىء عن طبيعة هذه العلاقات مما يكشف الغموض الذى يحيط بهذه الفترة . وهذا يدفعنا إلى التساؤل عما إذا كان أمير كريت قد استجاب لدعوة السلام التى وجهها اليه البطريرك نيقولا ، وماهى الأسباب التى دفعته لذلك ؟ وهل اسباب تتعلق بالأحوال الداخلية فى امارته ، أم غير ذلك من أسباب ؟ ولن نجد — للاسف — الإجابة الحاسمة على هذه التساؤلات وغيرها . فلم تأت المصادر العربية بالكثير عن علاقات كريت بالدولة البيزنطية بصفة عامة ، كما انها لم تذكر شيئا كذلك عن الأحوال الداخلية فى الجزيرة . أما المصادر البيزنطية فقد اهتمت بسرد العلاقات السياسية بين بيزنطه وكريت ، واغفلت ماعداها من امور خاصة بأحوال كريت الداخلية .

(1) Nicolai Constantinopolitani Archiepiscopi Epistolae, tomus unicus, p. 27.
(2) Ibid, p. 29.

وهناك احتمال مؤداه أن تكون الدولة البيزنطية لجأت إلى شراء السلام مع كريت بعد الهزائم المتتالية التى منيت بها ، وذلك بتعهدها بدفع الجزية السنوية لامرائها حتى تأمن جانبهم وتتفرغ لمشاكلها الأخرى خصوصا وانها كانت تمر بظروف حرجة خلال فترة زمنية امتدت منذ عام ٩١٥ م وحتى عام ٩٤٥م ، تلك الظروف التى سنعرض لها فيما بعد بشيء من التفصيل . ولا نستبعد ذلك الاحتمال ، خاصة وان هناك اشارة اوردها ابن حوقل عند تعرضه لجزيرة كريت الإسلامية ، يفهم منها انه كانت هناك هدنات تعقد بين المسلمين بها والدولة البيزنطية من آن لآخر ، وكان الجانب الكريتى فيها هو الجانب الأقوى الذى يملى شروطه على البيزنطيين ، فقد قال ابن حوقل «وفى حين الهدنة والمسالمة مصونه (١) ، فى شرائط بينهم عزيزة ، مقرونة بالقهر والاستظهار»(٢) . وأن كان المؤرخون البيزنطيون — وهم مصدرنا الرئيسى فى موضوع هذا البحث لم يشيروا إلى مثل هذا الأمر ، فيغلب على الظن انهم كانوا يجدون فى ذلك شيئا شائنا لايشرفهم ذكره . وعلى أية حال فهذه كلها مجرد فروض واحتمالات ، دفعنا اليها الصمت الذى يحيط بالعلاقات البيزنطية الكريتيه ، خلال هذه الفترة الزمنية الممتدة من عام ٩١٥ وحتى عام ٩٤٩م .

كان هذا فيما يتعلق بالجانب الكريتى ، أما الدولة البيزنطية ، فقد وجد لديها من الأسباب ماجعلها تحرص على أن يسود السلام بينها وبين كريت ، وكانت هذه الأسباب تتعلق فى المرتبة الأولى ، بالصراع الذى نشب بينها وبين جيرانها على الحدود المختلفة . فبعد وفاة الإمبراطور ليو السادس فى ١٢

---

(١) أى أن كريت هى المصونة

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ، القسم الأول ، ص ٢٠٤ .

مايو ٩١٢ م ، خلفه على العرش ابنه قسطنطين السابع ، الذى كان فى السادسه من عمره آنذاك ، فتولى تصريف شئون الحكم كوصى على الطفل القاصر ، عمه الاسكندر ، غير انه لم يلبث أن توفى فى ٦ يونيه ٩١٣ م بعد مباشرته مهام الوصاية بعام واحد (١) . ولما كان قسطنطين لم يتجاوز السابعة بعد ، فقد تولى تصريف شئون الإمبراطورية مجلس وصاية برئاسة بطريرك القسطنطينية نيقولا مستيكوس . لكن الظروف التى تعرضت لها بيزنطة وقتذاك ، والخاصة بصراعها مع البلغار ، استلزمت قيام حكم عسكرى قوى ، وقد انتهز هذه الظروف المواتيه قائد البحرية البيزنطية الدرنجار رومانوس ليكابينوس وعن طريق تقربه من الإمبراطورة الوالدة زوى Zoé نجح فى أن يصبح وصيا على الإمبراطور قسطنطين ، وكان ذلك فى عام ٩١٩ . ولم يلبث ليكابينوس أن وطد مركزه ونفوذه وتخلص من امبراطوره زوى ومستشاريها . وفى مايو ٩١٩ م زوج ابنته هيلين Helena من الإمبراطور قسطنطين السابع ، وبذلك حصل على لقب الأمير الوالد Basileopator (٢) وفى ٢٤ سبتمبر ٩٢٠ م رفعه صهره قسطنطين إلى رتبة القيصر Ceasar ، ثم ارتقى إلى مرتبه أعلى من ذلك بأن أصبح شريكا فى الحكم للأمبراطور قسطنطين ، وذلك فى ١٧ ديسمبر ٩٢٠ م (٣) .على أن طموح ليكابينوس لم يقف عند

---

(1) Theophanes Continuatus, Liber VI, p. 377.

(٢) يعتبر هذا اللقب أعلى الألقاب البيزنطية فى ذلك الوقت ، وقد أنشأه الامبراطور ليو السادس وكان هذا اللقب مقتصرا على اصهار الامبراطور ، ومن الامتيازات التى يحصل عليها حامله هو السماح له ولزوجته بتناول الطعام على المائدة الامبراطورية .

انظر : Ostrogorsky, op. cit., p. 215.

رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٩٢ .

(3) Theophanes Continuatus, pp. 380—384.

راجع كذلك : Ostrogorsky, op. cit., pp. 231—234.

هذا الحد ، بل سرعان ماانفرد بشئون الحكم ، واصبح الاوتوقراطور باسيليوس (أى الحاكم المفرد) ، ورفع ثلاثة من ابنائه إلى مرتبة اباطرة زملاء للأمبراطور الشرعى قسطنطين السابع ، بل لقد جعل ابنه كريستوفر Christopher يسبق الإمبراطور قسطنطين فى الترتيب ، أى انه أصبح عليه أن يلى أباه مباشرة فى حكم الإمبراطورية ، كما بذل كل جهده فى سبيل صرف الإمبراطور قسطنطين عن التدخل فى شئون الحكم ، بأن شجعه على التفرغ لدراسة الأدب والتاريخ (١) . وقد صاحبت هذه التطورات الداخلية احداثا خارجية خاصة بالعلاقات بين بيزنطه وجيرانها البلغار والمسلمين والروس .

فقد كانت بلغاريا فى هذه الحقبة من الزمن تشمل جانبا كبيرا من غرب شبه جزيرة البلقان ، ومعظم الأراضى الواقعة بين نهر الدانوب وموراڤيا وبولندا ، وكان يتولى عرشها آنذاك القيصر سيميون Tsar Symeon (٨٩٣ — ٩٢٧ م) ، الذى نشأ بالقسطنطينية كرهينه ، واتقن اللغة اليونانية والخطابة وعلم المنطق ، كما استهوته الحضارة البيزنطية إلى حد كبير ، بعد أن وقف على عظمة وأبهة البلاط البيزنطى ، وكانت اقصى احلام سيميون أن يستولى على القسطنطينية ويضع التاج الإمبراطورى على رأسه ، وينشىء امبراطورية عالمية واحدة تحل محل الإمبراطورية البيزنطية . وبمجرد توليه الحكم فى بلاده نشأ الصراع بينه وبين بيزنطه ، وكانت الأسباب المباشرة له تجاريه بحته . إذ أن اثنين من التجار البيزنطيين حصلوا من الإمبراطور ليو السادس على حق احتكار التجارة البلغارية ، ثم عمدا إلى نقل السوق البلغارية إلى مدينة سالونيك

---

(1) Theophanes Continuatus, p. 339. انظر :

Ostrogorsky, op. cit., pp. 239--240. راجع ايضا :

وفرضا رسوما باهظة على التجار البلغار ، فتقدم هؤلاء التجار بشكواهم إلى القيصر سيميون الذى رفعها بدوره إلى الإمبراطور ليو ، فأهملها اهمالا تاما . وبناء على ذلك اعلن سيميون الحرب على بيزنطه ، وقد حدثت بعض الإشتباكات بين الطرفين تراوحت بين النصر والهزيمة لكليهما ، وانتهت بانتصار البلغار انتصارا حاسما على الجيوش البيزنطية فى معركة بلغار وفيجون Bulgrophygon بالقرب من ادرنه ، وذلك فى عام ٨٩٦ م . وبمقتضى الصلح الذى اعقب هذه المعركة تحتّم على بيزنطه أن تدفع الجزية السنويه للمملكة البلغارية (١) .

وما أن تولى الإمبراطور الأسكندر الحكم فى سنة ٩١٢ م ، حتى امتنع عن دفع هذه الجزية للقيصر سيميون ، فهيأ له بذلك الدافع الذى أعلن من أجله الحرب من جديد (٢) . وقد نجح الجيش البلغارى فى انزال الهزائم المتوالية بالبيزنطيين فى معارك مختلفة ، على أن أشد الهزائم التى ألحقها بهم وقعت فى عام ٩١٧ م حين تم سحق الجيش البيزنطى عند نهر اخيلوس Achelous بالقرب من انخيالوس Anchialus فى إقليم تراقيا . وفى سنة ٩١٨ م هاجم سيميون شمال بلاد اليونان ، وتوغل بها حتى وصل إلى خليج كورنثة ، وقد تمل سيميون بهذا النصر فأعلن نفسه قيصر البلغار وامبراطور الرومان (٣) وبعد ذلك تطلع إلى الأستيلاء على العاصمة البيزنطية نفسها . وفى عام ٩٢٣ م ، استولى على أدرنه ، على أنه أدرك استحالة اقتحامه

---

(١) عمر كمال توفيق : الامبراطورية البيزنطية ، ص ، ص ١١٥ – ١١٦ .
انظر كذلك ،
Ostrogorsky, op. cit., pp. 227—232; C.M.H., vol IV, p. 237.

(2) Ostrogorsky, op. cit., 231.

(3) Theophanes Continuatus, Liber VI, pp. 385—390
راجع كذلك ، عمر كمال توفيق ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١١٦ .
Ostrogorsky, op. cit., pp. 232—234.

القسطنطينية التى أمتازت بحصانتها(١) ، إلا بامتلاكه اسطولا بحريا إلى جانب قواته البرية ، ولما كان لا يمتلك مثل هذا الأسطول ، فقد عقد محالفة مع الأخشيديين حكام مصر حتى يمكنه الأستفادة من مهارة المصريين فى القيام بهجوم مشترك على القسطنطينية . (٢) على أن الإمبراطور ليكابينوس احبط هذه المحالفة بتقربه إلى الأخشديين ، فأرسل إلى محمد بن طغج الأخشيد حاكم مصر انذاك ، برسالة يخطب وده فيها ، وبالرجوع إلى المصادر العربية والبيزنطية المعاصرة والمتأخرة لم نعثر على نص رسالة ليكابينوس ، وان كان قد وصلنا نص رد الأخشيد عليه ، وقد انفرد المؤرخ القلقشندى بايراد هذا النص (٣) ، ومنه يفهم أن الإمبراطور البيزنطى أوفد برسولين من قبله إلى الأخشيد ، احدهما يدعى نيقولا ، والأخر اسحاق ، وبعد أن جزل رومانوس الثناء للأخشيد بقصد التقرب اليه ، اخبره برغبته فى تخليص الأسرى المسلمين الموجودين بالسجون البيزنطية ، وكذلك قيام العلاقات الودية بينهما ، وفتح أسواق التجارة بين البلدين . وقد استجاب له لأخشيد ، وبذلك نجح ليكابينوس فى سد الطريق امام سيميون البلغارى .

ولما وجد هذا الملك أن مفاوضاته مع الأخشيديين لم تثمر ، وأن مالديه من قوات لن يهيء له تحقيق حلمه بفتح القسطنطينية ، رأى انه من الأفضل التخلص عن هذا الحلم وان يقنع بعقد صلح مع الدولة البيزنطية ، ومن ثمة فقد ألح فى مقابلة الإمبراطور البيزنطى ، وفى ٩٢٤ م جرى اللقاء الشهير بينه وبين الإمبراطور ليكابينوس تحت أسوار القسطنطينية ، فأستقل الإمبراطور

---

(١) سبق التعرض لموقع القسطنطينية والمميزات التى اختصت بها فى الفصل الاول ص ٨٠ حاشية رقم (٤).

(2) Ostrogorsky, op. cit., p. 235.

(٣) انظر نص خطاب الاخشيد إلى رومانوس ليكابينوس فى المصدر التالى :
القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٧ ، ص ص ١٠ – ١٨ .

سفينة إلى موضع اللقاء ، وجاء سيميون من جهة البر ، وتبادلا عبارات التحية والأحترام ، ثم انتقلا بالحديث إلى موضوع المقابلة ، وقد اسفر هذا اللقاء عن عقد الهدنة بين الطرفين مقابل تعهد بيزنطة بدفع الجزية السنوية للملك البلغارى(١) .

وهكذا تخلصت بيزنطة من هذا الخطر الذى هددها لعدة سنوات ، وما كادت تنتهى من مشاكلها الراهنة مع البلغار ، حتى خاضت صراعا آخر مع المسلمين على الجبهة الشرقية للإمبراطورية اذ وجدت فى الأوضاع السياسية المضطربة التى عانى منها المشرق الإسلامى آنذاك (٢) ، فرصتها الذهبية لاستعادة ممتلكاتها السابقة فى هذه المنطقة ، فقامت بمحاولات متكررة فى عامى ٩٢٥ ، ٩٢٦ م ، (٣١٣هـ ، ٣١٤ هـ) للإستيلاء على مدينة ملطية . لكن هـذه المحاولات لم تكلل بالنجاح ، حتى تم للقائد البيزنطى يوحنا كـوركـواز الإستيلاء عليها فى عام ٩٦٤ م (٣٢٢هـ ((٣) . وقد وجدت الدولة البيزنطية فى هذه المرحلة من مراحل صراعها مع مسلمى المشرق ، ندا خطيرا تمثل فى الأمير سيف الدولة الحمدانى الذى تولى توجيه القتال ضد البيزنطيين وكان أول اشتباك له معهم فى عام ٣٢٤ هـ (٩٣٥ – ٩٣٦ م) حين سار الجيش البيزنطى بقيادة كوركواز إلى مدينتى آمد وسميساط بأعلى الجزيرة – التابعتين لأبى تغلب بن حمدان حاكم امارة الموصل وشقيق سيف الدولة – فنازلهم الأمير سيف الدولة عند آمد وابعدهم عنها (٤) . وفى شهر سبتمبر من عـام

---

(1) Theophanes Continuatus, Liber VI, p. 397.

(٢) انظر التفاصيل ، فى الفصل الرابع من البحث .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، جـ ٦ ، ص ١٨٢ ، ص ١٨٥ ، راجع كذلك :
Canard, Histoire de la Dynastie des Hamdanides, pp. 736—737.

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص ٢٥٨ .

٩٣٨ (ذى الحجة ٣٢٦ هـ) احرز سيف الدولة انتصارا حاسما على كوركواز فى إقليم اعالى الجزيرة فى موضع بين حصن زياد وحصن سلام(١) ثم غزا سيف الدولة ارمينيه (٢) فى عام ٩٤٠ م (٣٢٨ — ٣٢٩ هـ) ، وارغم عددا كبيرا من امرائها على الأعتراف بسيادته ، وتوغل حتى وصل إلى الممتلكات البيزنطية فى ارمينية فخرب الجهات المجاورة لمدينة كولونيا Colonta على أن ماحدث من صراع داخلى فى دار الخلافة العباسية ، أعاق سيف الدولة عن مواصلة جهوده العسكرية ضد البيزنطيين ، وعاد إلى العراق كيما يستأنف التدخل فى أمور الخلافة العباسية هناك (٤) .

ولم تكد الحرب مع سيف الدولة تهدأ ، حتى ظهر فى الأفق خطر جديد موجه ضد بيزنطة ، وكان هذا المرة من جانب الروس ، اذ قام الأمير الروسى إيجور Igor فى يونيه ٩٤١ م بحملة بحرية كبيرة ، ونزل بقواته على شاطىء بيثينيه المطل على البحر الإسود ، وانزل هو ورجاله التخريب والدمار بالشاطىء

---

(١) نفس المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ ، راجع كذلك :

Canard op. cit., p. 743.

(٢) كانت ارمينيه فى ذلك الوقت مملكة مستقلة استقلالا داخليا ، ولكنها كانت تعترف بسيادة الخلافة العباسية ، فكانت تدفع الجزيه السنوية للخليفة العباسى وكان لابد من الحصول على موافقته عند تعيين ملوكها ، وفى نفس الوقت كانت ترتبط بالعلاقات الودية مع الامبراطورية البيزنطية ، التى كانت تطمع فى اخراج ارمينية من دائرة النفوذ الاسلامى ، وادخالها فى مناطق النفوذ البيزنطى ، انظر :

C.M.H. vol IV, pp. 140, pp. 158—159.

(3) Canard, op. cit., p. 747.

(٤) كان هذا الصراع من أجل السلطة بين الخليفة العباسى المتقى بالله ، وامير الامراء التركى ثوزون وكان بنو حمدان يناصرون الخليفة العباسى ، ويتخذون جانبه ، وبشأن تفاصيل هذا الصراع وموقف الحمدانيين منه ، انظر ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ .

الآسيوى لبوغاز البسفور ، ثم واصلوا زحفهم على هذا الشاطىء حتى وصلوا إلى كريسوبوليس Chrisopolis . لكن الجيش والأسطول البيزنطى نجحا فى انقاذ الموقف ، فأنزل الجيش بقيادة كوركواز هزيمة ساحقة بالروس وحين انسحبوا إلى سفنهم عازمين على الأرتداد هاجمهم الأسطول البيزنطى بقيادة القائد البارع ثيوفانيس Theophanes والحق بهم خسائر فادحة (١) .

على أن هذه الهزائم لم تثن عزم ايجور عن معاودة الهجوم على الأراضى البيزنطية ، فقام بحملة ثانية فى ٩٤٤ م ، وقد استعد لها استعداد كبيرا ، بعد أن استفاد من نتائج حملته السابقة ، فأعد سفنا حربية قوية ، كما عبأ جيشا ضخما استعان فيه إلى جانب المقاتلين الروس بعناصر اخرى من الصقالبة والبجناك . وحين علم الإمبراطور ليكابينوس بعزمه على مهاجمة القسطنطينية أرسل اليه سفارة محملة بهدايا ثمينة اوضحت له استعداد الإمبراطور لدفع الجزية السنوية له ، لكن ايجور لم يعبأ بذلك ، وتقدم بأسطوله حتى نزل على سواحل بيثينية ، وسار نحو القسطنطينية ، واخذ يعبث فسادا فى الأراضى التى مر بها حتى بلغ البسفور . لكن النيران الإغريقية لعبت دورا هاما فى ابعاده عن العاصمة وانزال الخسائر الجسيمة بجنده ، الذين تعرضوا كذلك الصقيع ونفاذ الاقوات ، وقد أدت هذه الأسباب مجتمعة إلى ارتداده إلى سفنه وعودته إلى الروسيا دون أن يحقق هدفه (٢) . وبعد ذلك جرت المفاوضات بين الجانبين ، وانتهت فى عام ٩٤٥ م ، بعقد معاهدة بينهما تقرر فيها الأعتراف بكل ماسبق عقده من معاهدات بين الطرفين ، اللذين تعهدا بألا يهاجم احدهما

---

(1) Ostrogorsky, op. cit., p. 245.

(2) C.M.H., vol IV, p. 205.

أراضى الجانب الآخر ، وأن ينهض كل منها لمساعدة الأخر إذا اقتضت الظروف ذلك (١) .

وهكذا امتلأت هذه الفترة الممتدة من عام ٩١٥ م وحتى عام ٩٤٥ م ، بالنزاع والصراع بين بيزنطة وجيرانها المختلفين ، هذا الصراع ، الذى ترك بصماته الواضحة على علاقاتها مع كريت ، اذ دفعها إلى الحرص على أن يسود السلام بينها وبين كريت لمعالجة مشاكلها على الجبهات المختلفة. على أنه حينما تهيأت لها الظروف المناسبة ، سارعت على الفور إلى اعداد حملة كبيرة وجهتها إلى كريت فى عام ٩٤٩ م (٣٣٨ هـ) ، أثناء عهد الإمبراطور قسطنطين السابع ، خاصة بعد أن عاود مسلمو كريت غاراتهم من جديد على الأراضى البيزنطية .

فقد تطورت الأحداث الداخلية فى الإمبراطورية البيزنطية بشكل أدى إلى انفراد قسطنطين السابع بالعرش، اذ توفى كريستوفر اكبر ابناء الإمبراطور ليكابينوس فى عام ٩٣١ ، وبموته أصبح من حق الإمبراطور قسطنطين أن يلى العرش بعد وفاة ليكابينوس ، الذى لم يتخذ أى اجراء من شأنه أن يجعل ولديه وزميليه فى العرش وهما ستيفن وقسطنطين يتقدمان على الإمبراطور قسطنطين السابع فى الترتيب ويليا والدهما فى الحكم بعد وفاته ، لذلك صمما على القيام بانقلاب للاطاحة بوالدهما ، ثم التخلص من قسطنطين السابع والإنفراد بالحكم . وقد لعب اتباع هذا الأخير دورا هاما فى تحريضهما على التعجيل بهذا الانقلاب ، وبالفعل نفذ المتآمران الشطر الأول من مؤامراتهما فى ١٦ ديسمبر ٩٤٤ م . إذ قبضا على والدهما ونفياه إلى جزيرة بروتن Proten

(1) C.M.H , vol IV, p. 205.

وهى إحدى الجزر المواجهة للقسطنطينية ، وبذلك فقدا السند الوحيد لهما . وقد جنى الإمبراطور قسطنطين السابع ثمار هذا الإنقلاب فتولى الحكم باعتباره صاحب الحق الشرعى فيه ، ولقى التأييد من جانب شعب القسطنطينية أما مدبرا هذه المؤامرة فقد تم نفيهما إلى جزيرة رودس فى ٢٧ يناير ٩٤٥ م . وهكذا تولى الإمبراطور قسطنطين السابع شئون الحكم بصفة فعلية ، وكان قد بلغ الاربعين من عمره ، وبعد أن تخلص من آل ليكابينوس وسيطرتهم على الحكم (١) .

وهكذا استتبت الأمور فى الداخل للإمبراطور قسطنطين السابع ، اما فى الخارج فقد ساد السلام بين بيزنطة وجيرانها الروس والبلغار ، أما على الجبهة الشرقية للإمبراطورية ، فقد أحرز البيزنطيون بعض الأنتصارات على حساب المسلمين. ففى سنة ٣٣١ هـ (٩٤٢ — ٩٤٣ م) هاجم البيزنطيون منطقة اعالى الجزيرة ، ونزلوا على ديار بكر وسبوا من اهلها خلقا كثيرا ، كما فتحوا مدينة آرزن وخربوها ، واخذوا يعيثون فى اراضى المسلمين حتى اقتربوا من مدينة نصيبين ، ثم حاصروا مدينة الرها ، والتمسوا من أهلها أن يسلموهم ايقونة منديل السيد المسيح (٢) ، الموجودة بكنيسة الرها ، ووعدوا اهاليها

---

(1) Theophanes Continuatus, Liber VI, pp. 431—436

انظر كذلك المصدر التالى ، يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ص ٤٠ — ٤١ (طبعة باريز) .

(٢) هو المنديل الذى يقال ان السيد المسيح قد مسح به وجهه فصارت صورته فيه . وكان هذا الاثر موضع تبجيل من جانب المسلمين والمسيحيين على السواء . وقد وافق المسلمون على تسليمه وهم مجبرين ، حتى يتخلصوا من تهديد البيزنطيين لهم ، ولينقذوا اسراهم . وقد تم نقل هذا الاثر إلى القسطنطينية حيث استقبل فى حفل مهيب ، حضره الامبراطور ليكابينوس وبطريرك القسطنطينية وغيرهما من كبار القوم . ، وحمل هذا المنديل إلى كنيسة القديسة صوفيا ، ثم إلى القصر الامبراطورى ، للاحتفاظ به . والواقع أن هذا يدل على مدى اهتمام البيزنطيين بالآثار الدينية الموجودة فى المشرق ورغبتهم فى جمعها ، تلك الرغبة التى كان=

بفك الحصار والأنسحاب من امام مدينتهم ، وإطلاق سراح عدد كبير من الأسرى المسلمين الموجودين بأيديهم ، إذا قاموا بتسليمهم هذه الإيقونة . وقد اجابهم الأهالى إلى ذلك بعد رجوعهم إلى اولى الأمر فى بغداد لاستشارتهم وفى رمضان ٣٣١ هـ (مايو ٩٤٢ م) هاجم البيزنطيون مدينة دارا فى اعالى الجزيرة وفتحوها . وفى العام التالى فى ربيع ٣٣٢ هـ (نوفمبر ٩٤٣ م) ، هاجموا مدينة راسى عين واقتحموها وسبوا من اهلها زهاء الف نفس ثم انصرفوا عنها . وفى عام ٩٤٩ م (٣٣٧ — ٣٣٨ هـ) استولوا على مدينة مرعش فى شمال الشام ، واستمروا فى زحفهم حتى وصلوا إلى المدينة الساحلية طرسوس (١) .

وعندما وجد المسلمون بكريت ان الدولة البيزنطية قد طغت فى عدوانها على المشرق الإسلامى ، عملوا على مناوءتها ، بفتح جبهة ثانية للقتال معها ، حتى تخف وطأة قتالها لاهالى تلك الجهات ، وذلك تحقيقا لمبدأ التعاون بينهم وبين اخوانهم فى الشام ، هذا المبدأ الذى جرى عليه الطرفان خلال هذه المرحلة من مراحل صراعهم مع بيزنطة . لذلك فقد عاود الكريتيون الهجوم على السواحل والجزر البيزنطية حتى (زعزعوا السيادة البحرية للروم). على حد تعبير المؤرخ البيزنطى كيدرينوس (٢) . فصمم الإمبراطور قسطنطين السابع

= مبعثها الارتباط الروحى بين المسيحيين والاراضى المقدسة ، وماحوته من اثار دينية ، وكان هذا احد الدوافع الرئيسية وراء الفتوحات البيزنطية فى المشرق الاسلامى فى القرن العاشر ، الميلادى . وللمزيد عن هذا الموضوع انظر ، عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبى ، ص ص ٩٠ — ٩٦ .

(١) يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ٣٢ — ٣٥ (طبعة باريز) .
راجع كذلك :
Ostrogorsky, op. cit., p. 250.

(٢) كيدرينوس : نفس المصدر ، ص ٣٣٦ .

على إرسال حملة جديدة لإخضاع كريت ، وشجعه على ذلك الأنتصارات التى أحرزتها جيوشه على المسلمين فى المشرق .

وقد مهد الإمبراطور قسطنطين لهذه الحملة بأرسال سفارة إلى الأندلس واشار إلى هذه السفارة المؤرخان المغربيان المقرى وابن عذارى ، اللذان أوضحا انها قوبلت بحفاوة بالغة (١) ، ثم سمح للرسل البيزنطيين بمقابلة الخليفة الأموى الناصر لدين الله (٢) ، وذلك فى يوم ١١ ربيع الأول ٣٣٨ هـ (١٠ سبتمبر ٩٤٩ م) وقدموا اليه كتاب (٣) الإمبراطور قسطنطين السابع الذى يلتمس فيه من الخليفة الناصر « إيقاع الموالفة واتصال المكاتبه » بينهما(٤)

---

(١) انظر تفاصيل هذا الاستقبال فى المصدرين التاليين : المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٣٤٣ - ٣٤٥ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ، ص ٢١٥ .

(٢) هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الربضى بن هشام الرضى بن عبد الرحمن الداخل ، تولى الحكم فى الاندلس فى مستهل ربيع الاول سنة ٣٠٠ هـ (منتصف اكتوبر ٩١٢ م) ، وتوفى فى ٢ رمضان ٣٥٠ هـ (نوفمبر ٩٦١ م) ، وهو اول من تسمى من الامويين بامير المؤمنين ، وتلقب باحد الالقاب السلطانية وهو «الناصر» ونحا خلفاؤه نحوه ، فتسموا بامرة المؤمنين وتلقبوا بالالقاب السلطانية . انظر ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ص ١٥٦ — ١٥٧ .

(٣) وصف المقرى هذا الكتاب بقوله : «وهو فى رق مصبوغ لونا سماويا ، مكتوب بالذهب بالخط الاغريقى ، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة ايضا مكتوبة بفضة بخط اغريقى ايضا فيها وصف هديته التى ارسل بها وعددها ، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه اربعة مثاقيل ، على الوجه الواحد صورة المسيح ، وعلى الاخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده ، وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملون البديع . وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج وكان فى ترجمة عنوان الكتاب فى سطر منه قسطنطين ورومانين المؤمنان بالمسيح ، العظيمان ، ملكا الروم ، وفى سطر اخر ، إلى العظيم الاستحقاق الفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالاندلس ، اطال الله بقاءه . انظر المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٣٤٤— ٣٤٥ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٢١٥ .

والظاهر إن الإمبراطور البيزنطى كان يهدف من وراء ذلك إلى خطب ود الخليفة الأموى حتى لايبذل المساعدة لأهالى كريت أوعلى الأقل يضمن حياده حيال الصراع المرتقب بين الكريتيين والحملة البيزنطية المرسله لاخضاعهم .

حملة جوجيل على كريت ٩٤٩ م (٣٣٨ هـ) :

لقد أورد الإمبراطور قسطنطين السابع التفاصيل الخاصة باستعدادات هذه الحملة (١) لكنه اغفل ذكر تفاصيل المعركة ذاتها مع المسلمين بكريت وماأسفرت عنه من نتائج . وكان من حسن الحظ أن أمدنا المؤرخ البيزنطى كيدرينوس بهذه التفاصيل (٢) ، وعلى هذا يمكن القول أن كليهما يتمم الأخر فى هذا الشأن . وجدير بالملاحظة ان غالبية المؤرخين المهتمين بدراسة التاريخ البيزنطى لم يعرضوا لتفاصيل هذه الحملة الكبيرة ، وانما اشاروا اليها اشارات سريعة عابرة (٣) ، كما هو الحال بالنسبة لحملة هيميريوس .

وقد اسندت قيادة القوات البحرية والبرية فى هذه الحملة إلى استراتيجوس ثيم ساموس البطريق قسطنطين جوجيل . وتكونت القوات البحرية ، من الأسطول الإمبراطورى واساطيل الولايات البحرية البيزنطية وذلك على النحو التالى :

---

(١) انظر تفاصيل هذه الحملة الكبيرة فى كتاب الامبراطور قسطنطين السابع «المراسم الامبراطورية باليونانية ، ص ص ٦٦٤ – ٦٧٨ .

(٢) انظر كتاب كيدرينوس «موجز التاريخ» وهو باليونانية ص ٣٣٦ .

(٣) انظر على سبيل المثال المراجع التالية : –

Vasiliev, Histoire de l'empire Byzantin, tome I, p. 407; Ostrogorsky, History of the Byzantine Empire, p. 250; Finlay, History of Greece, tome II, pp. 315—316; Schlumberger : Un Empereur Byzantin, p. 38.

الإسطول الإمبراطورى : تكون هذا الأسطول من ١٠٠ شلنديه ، و ٦ بامفيليات و ١٥٠ قطعة حربية من نوع الأوسيا usia . وضم هذا الأسطول ٦٢٩ بحارا من الروس ، و ٣٦٨ بحارا من التلماخ و ٧٠٠ بحارا من الأسرى من عناصر مختلفة .

اسطول الولايات البيزنطية : واشتمل هذا الأسطول على ٣٩ قطعة حربية من بينها : ٦ بامفيليات تحمل كل واحدة ١٢٠ مقاتلا ، ٤ شلنديات تحمل الواحدة ١٠٠ مقاتل ، وأوسيا واحدة ارسلها ثيم البحر الإيجى واشترك ثيم سمرنا فى هذه الحملة بأسطول مكون من ٦ بامفيليات تشمل الواحدة ١٥٠ مقاتلا ، ٦ شلنديات حمولة الواحدة ٨٠١ مقاتل . أما اسطول ثيم كبير هايوت فتكون من ٦ بامفيليات تتسع الواحدة لـ ١٥٠ مقاتل و ٦ شلنديات تحمل الواحدة ١٠٠ مقاتل . واحتوى اسطول البلوبونيز على اربع شلنديات فقط كما ارسل استراتيجوس هذا الثيم بثلاثة الاف بحار من المردة الغربيين من البلوبونيز ونيقوبوليس وكيفا لونيا .

وإلى جانب القوات البحرية المشتركة فى هذه الحملة ، كانت هناك قوات برية من المقاتلين بلغ عددها ٧٤٣ر ٤ جندى من الجيش الإمبراطورى وجيوش ثيمات تراقيا ومقدونيا والاوبسيق والتراقيسيون .

هذا إلى جانب كميات كبيرة من الأسلحة ، ونستدل على ذلك حين نعلم حمولة الاسلحة الموجودة بكل درمونه اشتركت فى هذه الحملة كما عرضها الإمبراطور قسطنطين السابع ، وكانت على النحو التالى : —

٧٠ درع سميك ، ٢١ درع خفيف ، ١٠ درع عادى ، ٨٠ خوذه من الفولاذ ، ١٠ خواذات بحافات لتغطية كل الوجه ، ٨ ازواج من الأشرطة

الفولاذية ، ١٠٠ سيف ، ٧٠ درع من الجلد المخيط ، ٣٠ درع ليدى ، ٨٠ كلاب ذو طرف حاد ، ٢٠ حربة مسنونة ، ١٠٠ حربة عادية ، ٢٠ قوس وقطع الغيار اللازمة لها ، ١٠٠٠٠ سهم ، ٢٠٠ سهم صغير ، ١٠٠٠٠ شوكة حديدية ، ٤ كلابات مزودة بسلاسل ، ٥٠ درع من الصوف السميك يلبس فوق الدرع العادى ، ٥٠ خوذه تعرف باسم كاميلوكيا (١)

وقد اتخذت اجراءات من مشددة لحماية هذه الحملة ، ومنع وصول أية مساعدات عسكرية لكريت من جانب المسلمين فى المغرب والمشرق على السواء ولتحقيق ذلك بعثت الحكومة البيزنطية بأسطول صغير مكون من ثلاث شلنديات واربع دورمونات تحمل الواحدة ٢٢٠ مقاتلا ، بقيادة البروسباطير يوحنا ، لمراقبة سواحل شمال افريقيا . كما ارسلت ثلاث سفن حربية من النوع المعروف باسم اوسيا ، إلى سواحل الأندلس لنفس الغرض . اما مسلمو المشرق فقد اتخذت اجراءات مماثلة حيالهم ، وقامت بهذه المهمة اربع دورمونات ، واوسيا واحدة ، وتولى القيادة العامة على هذه القطع ستيفانوس شقيق الإمبراطورة هيلين زوجة قسطنطين السابع ، وقد رابطت هذه القوة بالقرب من جزيرة رودس .

وحتى لايقع اى هجوم اسلامى على القسطنطينية اوغيرها من السواحل البيزنطية اثناء غزو هذه الحملة لكريت ، فقد خصصت اربع وعشرون اوسيا وبامفيلية واحدة لحراسة العاصمة البيزنطية ، كما خصصت سبع اوسيات لحراسة سواحل دوراخيوم ، ودالماشيا ، وثلاثة اخريات لحماية ساحل كلابريا فى افضى لطرف الجنوبى من إيطاليا (٢) .

---

(١) انظر كتاب قسطنطين السابع ، المراسم الامبراطورية ، ص ص ٦٦٩ ، ٦٧٠ . باليونانية

(٢) نفس المصدر ، ص ٦٦٥

ومن العرض السابق نلمس مدى ضخامة هذه الحملة ، وماتكلفتـــه الحكومة البيزنطية من مال وجهد فى سبيل اعدادها والآمال التى عقدتها عليها . وإذا كنا قد استقينا المعلومات الخاصة بتلك الاستعدادات من كتاب المراسم الإمبراطورية لقسطنطين السابع فيمكن ان نستكمل اخبارها ممارواه المؤرخ كيدرينوس الذى ذكر أن الحملة ابحرت إلى كريت فى عام ٩٤٩ م (١) (٣٣٨) ، ولم تجد صعوبة كبيرة فى النزول على ساحل كريت ، ولكنه لم يوضح المكانالذى نزلت به الحملة ، وانما استطرد قائلا ان قائد الحملة قسطنطين ، الذى يلصق به كيدرينوس كل الصفات المشينة ، لم يهتم بتحصين معسكره ، كما انه لم يستخدم الكشافة والجواسيس لاستقصاء اخبار اهالى كريت ومدى استعدادهم لمواجهة القوات البيزنطية ، وبذلك تهيأت الظروف المناسبة للمسلمين ، وتحتجنح الظلام التفوا حول المعسكر البيزنطى وحاصروه تماما ، وابادوا الجزء الأكبر منه ، وكاد جوجيل نفسه ان يلقى نفس المصير لولا ان حماه بعض غلمانه ، واستطاع ان يفر على ظهر احدى السفن (٢) ولم يشر كيدرينوس ولاغيره من المؤرخين المعاصرين أو المتأخرين إلى المصير الذى لقيه جوجيل او العقاب الذى أنزله به الإمبراطور البيزنطى نتيجة لتسببه فى هذه الهزيمة المروعة .

وهكذا لقيت هذه الحملة مالقيته الحملات البيزنطيه السابقة من مصير ولم تحقق سوى الفشل الذريع الذى أكد مهارة المسلمين بكريت وتفوقهم على

---

(١) لم يوضح كيدرينوس التاريخ الدقيق لابحار هذه الحملة ، ولم نعثر فى المصادر الاخرى على مايفيد فى هذا المجال ، والراجح انها ابحرت إلى كريت فى صيف عام ٩٤٩ م ، وذلك على العادة التى اتبعتها بيزنطه دائما فى الحملات السابقة التى ارسلتها ضد كريت ، والتى دأبت على ارسالها فى فصل الصيف حتى تكون الاحوال المناخية ملائمة بالنسبة لها .

(٢) كيدرينوس ، موجز التاريخ ، ص ٣٣٦ . باليونانية .

اساطيل الإمبراطورية البيزنطية وجيوشها ، ويمكن القول ان عدم توفيق بيزنطة فى اختيار القادة الأكفاء ، الذين يتولون الأشراف على حملاتها ، وتوجيه العمليات العسكرية ضد كريت ، سواء فى هذه الحملة او الحملات التى سبقتها يعتبر من أهم الأسباب التى أدت إلى اخفاق هذه الحملات واضاعة كل الجهود والأموال التى بذلت فى اعدادها هباء .

والملاحظ أن الدولة البيزنطية لم تعاود الكره فى محاولة جديدة لغزو كريت إلا فى عام ٩٦٠ م ٣٤٩ هـ ، وهذا يرجع إلى أن الهزيمة الشديدة التى لقيتها على يد المسلمين بكريت جعلتها تخشى منازلتهم لفترة من الزمن ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى بسبب المتاعب التى أثارها فى وجهها الأمير سيف الدولة بن حمدان حاكم امارة حلب فى شمال الشام ، بغزواته المتكررة ضد الأراضى البيزنطية .

ففى النصف من ربيع الأول ٣٣٩ هـ (أول سبتمبر ٩٥٠ م) خرج سيف الدولة لغزو الممتلكات البيزنطية على رأس جيش بلغ تعداده ثلاثين الف مقاتل كما انضم اليه أربعة الاف مقاتل من طرسوس ، وأوغل سيف الدولة بقواته داخل الاراضى البيزنطية حتى بلغ مدينة صارخة التى لاتبعد عن القسطنطينية العاصمة أكثر من سبعة أيام . وافتتح حصونا كثيرة كما وقع فى يده العديد من الأسرى والغنائم . وانهى سيف الدولة عملياته الحربية فى جمادى الآخرة من نفس السنة (نوفمبر — ديسمبر ٩٥٠ م) نظرا لحلول فصل الشتاء ، وحين أراد العودة إلى حلب مقر حكمه ، قطع عليه البيزنطيون بقيادة الدمستق ليوفوقاس الطريق ، وضيقوا عليه المسالك ، فتخلى عنه عدد من جنده وهلك كثير آخرين ، واسترد البيزنطيون الغنائم والأسرى . أما سيف الدولة ، فقد

نجا فى عدد يسير من عساكره . وقد بلغ من شدة هذه الهزيمة أن بعض المؤرخين اطلقوا عليها اسم غزاة المصيبة (١) .

وفى ٣٤٠ هـ (٩٥١ — ٩٥٢ م) وبينما سيف الدولة يشرف على تشييد الاستحكامات واقامة الأسوار لحماية المدن التى تقع على الطريق المؤدى إلى حلب مثل رعبان وتل خالد ، هاجمه البيزنطيون بقيادة قسطنطين ابن الدمستق برداس فوقاس ، غير ان سيف الدولة انتصر عليهم . وقد دفعهم ذلك إلى ان يوجهوا هجومهم إلى منطقة الجزيرة ، فأغاروا على مدينتى آمد وميافارقين لكن سيف الدولة فاجأهم وانزل بالدمستق فوقاس هزيمة ساحقة .(٢) .

وفى عام ٣٤٢ هـ (٩٥٣ م) قام سيف الدولة بحملة كبيرة كان هدفه منها اقليم ملطيه الذى يعتبر مصدر خطر على إقليم الجزيرة الذى دأب البيزنطيون على مهاجمته . وقد اجتمع سيف الدولة بقواته فى مدينة دولوك بشمال الشام ثم توجه إلى سفوح جبال طوروس واتخذ طريقه إلى مدينة زبطرة التى كانت بيد البيزنطيين فأغار عليها وعلى عرقه وملطيه (٣) . وقد حدث اشتباك عنيف بين سيف الدولة والقوات البيزنطية بقيادد قسطنطين فوقاس بالقرب من ملطية واحرز سيف الدولة انتصارا كبيرا على البيزنطيين ، ثم توجه إلى مدينة مرعش فى شمال الشام بقصد أن يعترض طريق عودة الدمستق برداس فوقاس بعد أن أغار على الشام . وتقابل الطرفان عند مرعش فى ١٠ ربيع الأول ٣٤٢ هـ (٢٥ يوليو ٩٥٣ م) فى معركة انزل فيها سيف الدولة بالبيزنطيين هزيمة

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، جـ ١ ، ص ١٥١ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٨ ، ص ٤٨٥ ، (طبعة بيروت ، ١٩٦٦ م) راجع كذلك :

Canard, Histoire de la dynastie des Hamdanides, pp. 761—769.

(2) Canard, Histoire de la dynastie des Hamdanides, pp. 772—733.

(3) Ibid, p. 774.

ساحقة ، واستولى على ماكان معهم من الغنائم والأسرى واصاب الدمستق برداس بالجراح ، كما اسر ابنه قسطنطين ، الذى مات فى الأسر رغم مالقيه من معاملة طيبة من جانب سيف الدولة (١) .

وقد عظم امر موت قسطنطين على والده برداس فوقاس ، فجمع جيشا ضخما من البيزنطيين والروس والبلغار ، وقصد إلى مدينة الحدث حيث كان سيف الدولة يشرف على اعادة بناء سورها ، والتقى الفريقان ، واشتد القتال بينهما ، وانتهى الأمر بانتصار سيف الدولة انتصارا باهرا ، وهلك من الجيش البيزنطى عدد كبير كما وقع كثيرين منهم فى الأسر ، ومن بينهم عدد كبير من اقارب الدمستق والبطارقة . (٢)

وقد ترتب على هذه الهزيمة ان ارسل الإمبراطور قسطنطين السابع فى عام ٩٥٥ م (٣٤٤ هـ) سفاره إلى سيف الدولة ليطلب الهدنة ، لكن سيف الدولة رفض الأستجابة لرجائه (٣) ، مما دفع البيزنطيين إلى مهاجمة حصن الحدث فى جمادى الأولى ٣٤٤ هـ (اغسطس – سبتمبر ٩٥٥ م)واحداث ثغرات فى سوره (٤) .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ١ ، ص ١٢٣ – ١٢٤ ، الذهبى : دول الاسلام ، جـ ١ ، ص ١٥٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ص ٣٠٩ .
راجع كذلك :
Canard, op. cit., p. 775.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ١ ، ص ١٢٥ ، ص ، ابن الاثير : الكامل ، جـ٨ ، ص ٥٠٨ (طبعة بيروت) .
راجع كذلك :
Canard, Histiore de la dynastie des Hamdanides, p. 780.

(3) Canard, op. cit., p. 781.

(4) Canaid. op. cit., p. 782.

وفى عام ٩٤٥ هـ (٩٥٦ م) حدث اشتباك عسكرى بين سيف الدولة والقوات البيزنطية بقيادة يوحنا تزيمسكس بالقرب من حصن تل بطريق التابع للبيزنطيين ، واستولى على الحصن (٢) . وأثناء عودته التقى بالبيزنطيين وأوقع بهم فى درب يعرف باسم درب الخياطين بالقرب من مدينة آمد بالجزيرة (٣) وفى شهر جمادى الأخر من نفس السنة ٣٤٥ هـ (سبتمبر اكتوبر ٩٥٦ م) عاد سيف الدولة لغزو الأراضى البيزنطية ، وامعن فى القتل والأسر ، فكان رد البيزنطيين على ذلك بان ساروا إلى مدينة ميافارقين فاغاروا على نواحيها وخربوا ونهبوا واحرقوا (٤) .

وقد نجح البيزنطيون فى ربيع الأول ٣٤٦ هـ (يونيه ٩٥٧ م) فى الإستيلاء على مدينة الحدث . وفى العام التالى قام الإمبرطور قسطنطين السابع بتجهيز حملة كبيرة عهد بقيادتها إلى يوحنا تزيمسكس ، وبلغ من حرصه على نجاح هذه الحملة انه عقد معاهدات صلح مع جيرانه البلغار والروس حتى يتفرغ لتدبير شئونها (٥) . وقد نجحت الحملة فى الإستيلاء على مدينة سميساط فى شمال الجزيرة (٦) . كما انزل يوحنا تزيمسكس الهزيمة بسيف الدولة عند رعبان فى شمال الشام فى شعبان ٣٤٧ هـ (اكتوبر ٩٥٨ م) (٧) .

---

(١) يقع تل بطريق على الضفة الغربية لنهر الفرات عند التقاء الفرات الاعلى بالفرات الادنى . راجع : Canard, Saif al-Daula, p. 115, N.2

(2) Vasiliev, in C.M.H., vol IV, p. 143.

(٣) يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ١١٤ ، ابن العديم : جـ ١ ، ص ١٢٦ .

(٤) ابن الاثير : الكامل ، حجـ٨ ، ص ٥١٧ (طبعة بيروت(، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص ٣١٥ .

(5) Canard, op. cit., p. 796.

(6) Ostrogorosky, History of the Byzantine State, p. 250.

(٧) يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ١١٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ١ ، ص ١٢٨ الذهبى : دول الاسلام ، جـ١ ، ص ١٥٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ص ٣١٩ .

وفى اول شوال ٣٤٨ هـ (٥ ديسمبر ٩٥٩ م) فتح الدمستق ليوفوقاس حصن الهارونيه (١) ثم مد نشاطه الحربى إلى ارض الجزيرة حتى وصل إلى الرها وحران (٢) .

وهكذا شغلت الدولة البيزنطية فى الفترة التالية لحملة عام ٩٤٩ م على كريت بالحروب المتواصلة مع الأمير سيف الدولة بن حمدان ، الذى نجح فى احراز الأنتصارات العسكرية عليها فى البداية ، على ان الأمور تطورت بشكل أصبح فيه الموقف العسكرى فى صالح البيزنطيين ، بعد أن بدأت الخلافات السياسية تدب فى انحاء المشرق الإسلامى ، وبذلك وجدت بيزنطة الفرصة متاحة امامها للقيام بحملة جديدة ضد كريت فلم تتوان عن استغلال هذه الظروف المواتيه .

ومن العرض السابق للعلاقات الكريتية البيزنطية خلال هذه الفترة التى امتدت منذ بداية تأسيس الأسرة المقدونية فى بيزنطة فى عام ٨٦٧م وحتى عام ٩٤٩ م ، وهو تاريخ اخفاق الحملة البيزنطية على كريت ، يتضح ان ميزان القوى كان لايزال فى صالح المسلمين بكريت ، رغم الأزدهار والأنتعاش الذى شمل الدولة البيزنطية فى عهد الأسرة المقدونية ، وذ[illegible] ان الدولة التى اقيمها كريت من جانب [illegible] البحرية البيزنطية وجعل [illegible] شرق البحر الابيض المتوسط ، بشكل اصبح معه استعادة بيزنطية لكريت يكاد أن يكون امرا مستحيلا .

---

(١) الهارونية حصن صغير من ثغور الشام ، يقع غرب جبل اللكام فى بعض شعابه ، وكان هارون الرشيد قد امر ببنائها فى سنة ١٨٣ هـ/ ٧٩٩ م فنسبت إليه ، انظر :
البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٧٥ ، ابن حوقل : صورة الارض ، القسم الاول ص ١٦٧ .

(٢) يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ١١٦ ، ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ١ ، ص ص ١٢٩ — ١٣٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص ص ٣٢١ — ٣٢٢ .

على انه حين انتاب الضعف المشرق الإسلامى ، وانتشرت النزاعات السياسية والعداوات بين امرائه وحكامه ، وساد التفرق والأضمحلال فى ارجائه ، اصبح من اليسير على بيزنطه ان توجه ضربتها الحاسمة إلى كريت ، وتنجح فى استعادتها ، خصوصا بعد أن وجدت الإمبراطورية تحت تصرفها فى تلك اللحظة القائد الكفؤ ، الذى أهلته صفاته وقدراته للاضطلاع بهذه المهمة الشاقة الخاصة باستعادة كريت من يد المسلمين ، وذلك على النحو الذى سيتضح خلال عرض الأحداث فى الفصل التالى .